أمير الشعراء

دِمَشْقِيَّاتُ شَوْقي وشامِيَّاتهُ

ظلالٌ وارفةٌ من التَّاريخ والشِّعْروالفَنِّ والجَمال

(القسم الثاني)

أ.د محمد رضوان الداية[1]

1) أستاذ الأندلسيات في جامعة دمشق سابقًا، نائب رئيس جامعة بلاد الشام.

ملخَّص البحث

يتناول هذا القسم من بحث «دمشقيات شوقي وشامياته» مكانة دمشق في شعر أحمد شوقي، مع عرض لبعض قصائده التي مجَّد فيها دمشق، وعبَّر عن حبِّه لها وإعجابه بها، وفيها تظهر مواقفه القومية واعتزازه بالتاريخ العربي، إضافة إلى خصائص الإبداع والجمال في شعره.

_ تمهيد:

نشرنا في العدد السابق القسمَ الأول من بحث «دمشقيات شوقي وشامياته – ظلال وارفة من التاريخ والشعر والفن والجمال»، وفي هذا العدد ننشر القسمَ الثاني، الذي يتناول جملة من قصائد أحمد شوقي، التي ذكر فيها دمشق، ومكانتها الحضارية، مع التركيز على إبراز العناصر الفنية والجمالية في أدب شوقي.

(٦) شوقي، والشام، والنّزعة العربيّة

(ومفتاح انتماء شوقي في دمشق والشام)

حين ابْتُلِيَ المشرقُ العربيّ بالاحتلال الأوربي لجأ العربُ إلى مكافحته بالسّلاح وبسائر أنواع المُقاومَة، وكانوا في حاجةٍ إلى إعلامٍ قويّ واسع المَدى يحمل القضيّة، ويُحَمّس الناس كما فعل الشعراء قديماً.

وكان النظرُ مُتوجهّاً إلى كبار الشعراء: شوقي، وحافظ، والمَطْران. واستبطأ أهل الشام مبادرتهم فُرادى أو مُجتمعَين، حتى قال إبراهيم طوقان[٢]:

جئتكم عاتباً بلابلَ مِصرٍ ... بلبلُ الرَّوضِ عَتْبُه ألْحانُ

رَفْرَفَ الشّعرُ فوقكم بجَناحَيْـ ... ـهِ، وفي ساحكم غذاهُ البَيانُ

وتَسامى صرحُ العروبة في مصـ ... ـرٍ، وهل غيركم له أركانُ؟

كم بلاد تهزّكم ليس فيها ... لَكُمُ جِيرةٌ ولا إخوانُ

خطْبُنا لا يهزّ شوقي، ولكنْ ... جاء (روما) فهزّهُ الرُّومانُ![٣]

خَطْبُنا لا يهزّ (حافظ إبرا ... هيم) لكنْ تهزّهُ اليابانُ![٤]

ما لِـ(مَطْران) يا فلسطينُ شأنٌ ... بِكِ، لكنْ لهُ بـ (نيرونَ) شانُ![٥]

2) ديوان إبراهيم (أعمال شاعر فلسطين إبراهيم طوقان) — ص: 188.
3) يشير إلى قصيدة لشوقي في ديوانه 1: 54 بعنوان (روما). و: هَزّه: استدعى أريحيّته.
4) يشير إلى قصيدة حافظ: ديوان حافظ إبراهيم – ج2 ص7.
5) هو الشاعر اللّبناني نزيل مصر: خليل مطران.

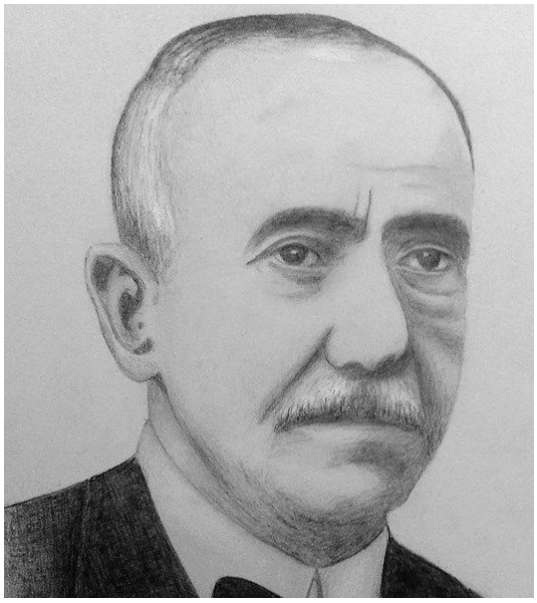

أحمد شوقي

على هذه الصُّورة وجّه شاعر فلسطين خطابه إلى الشّعراء الكبار الثلاثة بكلمة شعريّة، عاتبًا، سائلاً إياهم أن يلتفتوا إلى مشكلات الأمة، وأحوالها الصعبة، وكان لـ: مُصطفى الشهابي[٦] نهجٌ آخر.

وقد سَرَد الشهابي خبر مقابلته أحمد شوقي، قال وهو يَسْرُدُ الخبر إنه و«عُصبة تلامذة» كما سَمّاهم كانوا يتساءلون – وهم في إستانبول – متى ينظم شوقي في قضايا العرب مثل أشعاره التي نظمها في ظلال الدّولة العثمانيّة؟ وكانوا يحسدون الوقائع والأماكن التي كان يذكرها شوقي في شعره.

قال الدكتور الشهابي[٧]: ثم دار دولاب الدَّهر، فثارت الحرب الكُبرى، فطحنتنا في مَنْ طحنته، وأهلكت عددا من رفاقنا، لكنّ ما انقشعت غَمائمُها السّود حتى فُصلت البلاد العربيّة عن البلاد التركيّة، وطلع علينا شوَقي بـ(سينيّته) المشهورة في الأندلس، وفيها:

وعلى الجُمعة الجلالة والنّا ... ...صرُ نورُ الخميس تحت الدِّرَفْسِ

ثم قوله:

صَنْعَةُ الداخل المبارك في الغَرْ ... ب وآلٍ له مَيامينَ شُمْس

قال الشّهابي[٨]: «ما إن قرأنا هذه الأبيات وأشباهها حتّى هَلّلنا وكبّرنا وقلتُ: الآن بدأ أمير الشعراء[٩] يكون شاعر النّزعة العربيّة الكبُرى». قال: «ثم اختلفنا إليه[١٠] في لبنان منذ سبع سنين، وإنّا في ذات يوم لنُسَرِّحُ الطرف في آكام الجبل وحراجه الملتفّة، ونتنادر... وإذا بأحد رفاقنا يبتدرُ شوقي قائلاً: «يا أبا علي[١١] يا أمير الشعراء[١٢]! أنت شاعر مصر الأكبر، وشاعر الإسلام، وشاعر الملوك من آل محمد علي باشا (في مصر) وشاعر العثمانيّين، والترك الكماليّين، وأنت الفيّاضُ الذي جمع بين وصف الدنيا وأجمل ما فيها، ووصف الآخرة بأروع ما في الدين من إيمان وتقوى: هلا أضفتَ إلى كلّ هذه النواحي التي سالت فيها مُرْهفاتُ أقلامك، ومَقاطرُها[١٣] ناحية هي لدينا بكل ذلك؟ فقال – رحمه اللّه – وقد تجهّمَ لنا[١٤]، وانتصبَ على كرسَيّه: أيُّ

وطوقان يشير إلى قصيدة مطولة لمطران في (نيرون) طاغية روما: ديوان الخليل – ج2 ص: 97.

6) مصطفى بن محمد سعيد الشّهابي، الأمير، أديب لغوي عالم بالمُصطلحات الزراعية، ترأس المجمع العلمي العربي نحو تسع سنوات، تقلّب في المناصب الوزارية وغيرها. وله مؤلّفات وبحوث كثيرة. وله تقدم في وضع المصطلحات الزراعية والنباتية. (الأعلام 7: 245).

7) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد 13: الصفحة: 106.

8) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد 13: الصفحة: 106.

9) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد 13: الصفحة: 106.

10) اختلف إليه: تردّد. يريد: قصدنا إليه (مرّةً بعد مرّة).

11) كان شوقي يكنّى بـ (أبي علي)، باسم ولده البكر: علي.

12) سبق أنّ شوقي كان يلقّب بأمير الشعراء قبل إعلان ذلك في ملتقى أدبيّ اجتماعي عامّ سنة 1927.
قلت: ولعل المتكلم من هؤلاء الشباب كان هو نفسه مصطفى الشهابي.

13) شبه الأقلام بالسّيوف المرهفة. ومقاطر الأقلام: أحبارها (ما يسيل من الحبر – يقطر – فيكتب ما ينظم من الشعر).

14) يقال: جَهمه: استقبله بوجه كريه. يقول إنّ شوقي أبدى امتعاضاً لظاهر كلامهم.

ناحية هذه؟ وكأنه يستغربُ أنِ تكون ثَمَّةَ نواح لم تتناولها عبقريّته، ولم يَبْدُ للناس فيها بيانُه، فقلتُ: هي التي قد ذَرَّ قَرْنُ شمسها[١٥]، ولاحَ نوْر هلالها في أندلسيّتك السّينيّة: هي وصفُ روائع الطبيعة في الشرق العربيّ كافّةً، هي تذكيرُنا بالشموس السّواطع من أجدادنا، هي حَثُّنا على عظيم الأعمال، وجليل الشؤون حتى نصبحَ أحراراً في بلادنا؛ والخلاصة ألّا تَقْصُرَ نفسك في فرائدك على مصر، أو على مَنْ لا يفهمونك من التُّرك، بل نطمَحُ بها إلى البلاد العربيّة اللّسان كلها، فتكون شاعر العرب في الشرق والغرب، وسينكبّون على قصائدك يستظهرونها، ويُرَدّدونها في كل مكان، ويمزجونها بدمهم، حتى إنه لو أمكن انتقال العلوم والآداب بالوراثة لَوُلِدَ أطفالنا وهم حُفّاظ لأشعارك مذاييعُ لأخبارها..»!!

قال الشهابي: ثم أضفتُ قائلاً: نحن ما تقاعسَ شُعَراؤنا عن القيام بواجبهم نحو مصر، وهاك مطران[١٦]، والرافعي[١٧] وغيرهما، دليلٌ ساطع على ذلك، كما أنّ النزعة العربيّة ما عدمت شعراءها كالزّركلي[١٨]، وجَبّري[١٩]، ومردم[٢٠]، والخطيب[٢١] في الشام، والزّهاوي[٢٢] والشبيبي[٢٣]، والكاظمي في العراق[٢٤]؛ ولكنّ النفس توّاقةٌ إلى إيمانك بهذه النّزعة حتى تكونَ أميرَها، وأميرَ شُعرائها على التّخصيص، كما أنت أمير الشعراء على التعميم».

قال الشّهابي:

«ولقد رأيتُ بعد ذلك وَجْهَهُ المُرْبَدّ[٢٥] يَبَشُّ لنا، ولَمَحْتُ الخيرَ في سَرائره؛ وإذا به يُجيبُ قائلاً: «أيها الصّحاب، كأني بكم تأتمرونَ بي! لكنكم ما تجاوزتم المكنونَ في نفسي!».

قال الشهابي: «فانطلقنا نَتباشر بالأمر[٢٦]، وإذا شوقي يطلع علينا بعد قليل[٢٧] – أي عندما اجتمعنا لتكريمه في مجمعنا العلمي العربيّ الدمشقي في ١٠ آب (أغسطس) سنة ١٩٢٥م بيتيمة نونيّة ما مدَح الإنسُ ولا الجِنُّ دمشقَ وأهلها بمثلها منذ كانت المدينةُ الخالدةُ، حتى أيام الناسِ هذه»...

(٧) قصيدة «دمشق»

(قم ناج جلّق...)

هذه القصيدة الدمشقيّة الشّاميّة الأولى[٢٨] هي من أعلى قصائد ديوان أ حمد شوقي، وأجملها:

---

15) القَرْنُ من الشمس: أول ما يبزغُ عند طلوعها. وذرّت الشمس: ظهرت أول طلوعها.

16) خليل مطران (-1871 1949) شاعر لبناني نزل مصر، واستقرّ فيها وكان يلقب بـ (شاعر القطرين). (الأعلام 2: 320).

17) مصطفى صادق الرافعي (-1881 1937) من كبار الكتاب، شاعر، عالم بالأدب. أصله من طرابلس الشام. (وهو من أهل مصر). (الأعلام 7: 235-236).

18) خير الدين الزركلي (-1893 1976): شاعر، أديب، مؤرخ، من شعراء الوطنيّة في الشّام، له ديوان، ومؤلفات، وله السّفر الكبير: «الأعلام».
- ترجم لنفسه في آخر كتاب الأعلام ج8.
- وإتمام الأعلام: نزار أباظة ومحمد رياض المالح – 12-18.

19) شفيق جبري: أديب لغوي شاعر له ديوان (نوح العندليب)، وله مؤلفات في الأدب والنقد. (الأعلام 2: 187).

20) خليل مردم بك: كاتب شاعر. له مؤلفات مختلفة، وله ديوان (ط)، ورأسَ مجمع اللغة العربية (1895 – 19؟؟).

21) خالد محمد الخطيب، طبيب من رجال الثورة السّورية (-1900 1937) له ديوان مطبوع. (الأعلام 2: 298).

22) جميل صدقي الزّهاوي (-1863 1936) قال الزركلي: شاعر ينحو منحى الفلاسفة. له مؤلفات. له عشرون ألف بيت منها ديوان الزهاوي (ط). (الأعلام 2: 137).

23) محمد جواد بن محمد النّجفي، المعروف بالشّبيبي، شاعر، أديب، له مؤلفات وديوان مطبوع، وهو من أهل النجف. (الأعلام 6: 74).

24) عبد المحسن بن محمد، أبو المكارم. قال الزركلي: شاعر فحل، كان يلقب بـ (شاعر العرب). له ديوان مطبوع.

25) ارْبَدّ وجهُ فلان: احمرّ حمرةً فيها سَواد عند الغَضب.

26) تباشر القوم: بشّر بعضهم بعضاً بما هو حَسَنٌ خَيّر.

27) هذا الـ (قليل) هو المدة القصيرة الفاصلة بين لقاء الشهابي وأصحابه لشوقي، وبين حضوره إلى دمشق مدعوّاً من المجمع.

28) ديوان شوقي 1: 160.

أحمد شوقي وسعد زغلول وخلفهم عبد الوهاب حين تبناه شوقي

عذوبةَ كلام، وروعة بيان، ودقّة أوصاف، وصدقَ لهجة، وذَوْبَ عاطفة، وحرارةَ انتماء، ودلالة أخوَّة؛

وهي في أعلى قصائده وأروعها ارتباطاً بأرض دمشق والشام، وعشقاً لأهلها، وحفظاً لآثارها، والتفاتاً إلى أحوالها، وتغلغلاً في تاريخها، ومعرفةً برجالها، وتقديراً لحضارتها؛

وهي في أعلى قصائده وأجملها: ربطاً بين ماضي دمشق وحاضرها، وتقويماً لأثرها، ورفعاً لشأنها؛

وهي في أعلى قصائده وأجملها وقوفاً على مَرابعها، وخشوعاً عند مسجدها، واستحضاراً لوقائعها؛

وهي في أعلى قصائده وأحقّها معرفةً بحقوق مَنْ رَفَعُوا شأن دمشق، وعزّزوا نفوذها، وربطوا أنحاء العالم القديم بحاضرتها، وأهدوا إلى الدنيا لغتها الجميلة، وعاداتها المُعجبة، وثقافتها الأصيلة؛

وهي في أعلى قصائده وأدقها تعبيراً عن عواطفه، وقد تكلّم بلسان أهلها، وروى عنهم، وانتمى فيهم، وحملَ لواءهم، وصار واحداً منهم.

ولقيت هذه القصيدة تقديراً متعدّد الجوانب من أهل دمشق على اختلاف اهتماماتهم؛ وقف عندها الباحثون وقفات خاصّة تأريخاً لها، وكلاماً في خصائصها، وتبياناً لموقف شوقي من دمشق والشام وأهلها.

وأدهش المتابعين والدارسين أن شوقي نظمها في دمشق، وكانت بنت ليلتها، أو بنت جلستها، وجعلها بديلاً عن قصيدة كان أحضرها معه. ومما قاله الأستاذ الرئيس محمد كرد علي في كلمة تأبين شوقي في المجمع العلمي العربي بدمشق؛ وهو يذكر خبر القصيدة:

«وأجمع العارفون بالشعر أنه لم تُمدح دمشق بمثل هذا اللسان.. ذلك لأن الشاعر مدَحها بل رثاها متأثراً بغابرها وحاضرها فبكى وأبكى..»[٢٩].

وحين وصل الدكتور شوقي ضيف[٣٠] إلى هذا المَجال من كتابه عن أحمد شوقي قال، وبين يديه ما صرّح به أهل دمشق والشام:

«ولم تُمدَح دمشق بقصيدة كما ذكر مجدها الغابر في هذه القصيدة:

29) مجلة المجمع العلمي العربي – المجلد 13 الصفحة: 75.
30) شوقي شاعر العصر الحديث – د. شوقي ضيف – دار المعارف بالقاهرة – الطبعة الحادية عشرة: 145.

قُمْ ناجِ جِلَّقَ وانشُدْ رَسمَ مَن بانوا مشت على الرسمِ أحداث وأزمانُ

ثم قال: «وقد صاغ فيها شوقي عواطف الدمشقيّين، وعبّر عنهم تعبيراً نفسيّاً دقيقاً بما يجول في ضمائرهم..».

وفي كلمة د. مصطفى الشّهابي[٣١] – الذي كان من أهم صلات الوصل بين شوقي ودمشق[٣٢]– في ذلك الاحتفال أن شوقي حين حضر حفل تكريمه في سنة ١٩٢٥ :

«طلع على الحاضرين، وعلى أهل دمشق والشام بيتيمة نونيّة، ما مدح الإنسُ ولا الجنُّ دمشقَ وأهلها بمثلها منذ ما كانت هذه المدينة الخالدة حتى أيّام الناس هذه؛ وقد تَناولتْ تلك الدرّة وصف دمشق وجنّاتها، والإشادة بالأمويّين وملكهم العظيم. وذكّرت أهل الشام بأنهم أحفاد بني غسّان، وبني عبد شمس، وحثّهم على إعادة المُلك [الحكم العربي]، وأوضحت لهم السُّبل التي تؤدّي بهم إلى هذه الغاية».

قال: «ولو لم يكن للفقيد سوى هذه القصيدة في منازعنا القوميّة لكانت وحدها منّةً له في أعناقنا، ما دام في بلاد الشام ناطقٌ بالضّاد ...».

تمثال أحمد شوقي في القاهرة

ومن أخبار هذه القصيدة التي استرسلت بعد نظمها بمدّة ما رواه كاتب أحمد شوقي وأمين سرّه[٣٣]، قال: «وممّا أُهدي إلى شوقي في الاحتفال [الذي نُصّب فيه أحمد شوقي أميراً للشعراء] علبة فضّة، وداخلها إطار من الفضّة حول قصيدة:

قُم ناجِ جلق وانشد رسم من بانوا ...

[أُهديت إليه] من النادي العربي في بمباي [بالهند].

بنى أحمد شوقي قصيدته (دمشق) عربية أعرابية، وفصيحة عصرية، تجمع بين خصائص الشعر الجزل البدوي الأعرابيّ، وبين رهافة الحضارة النَّديَّة، وجمع شوقي بين هذين الطرفين في توازن عجيب، وتدفق غريب، واستفاضة واسعة، فكأنه لشدّة الانفعال، وسرعة التدفق الشعري يُسابق الكلام في نصٍّ شعريٍّ لم تظفر دمشق والشام بمثله.

ولم تُنقص حرارة الانفعال، ولا تدفّق الارتجال من خصائص فنه الشعري، بل زادت في مزاياه،

31) مجلة المجمع العلمي العربي – المجلد 13 – الصفحة: 108.
32) انظر في هذا البحث فقرة: «شوقي والشّام والنزعة العربية».
33) اثنى عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء – أحمد عبد الوهاب أبو العزّ – ص: 43.

وتألّقت «ربّةُ الشعر» عند شوقي في تقديم هذه القصيدة الفذّة التي خَلَدت هي في ذاتها، وخَلّدت مدينةً تستحق هي وأهلها مَزِية الخلود..

مُجْرَيات القصيدة

عَنْوَنَ الديوان للقصيدة بـ (دمشق)[٣٤]، وهي في واحد وأربعين بيتاً، وذكر أحمد شوقي دمشق في البيت الأول باسمها التاريخي (جِلّق)[٣٥]، وخاطب نفسه[٣٦]، واستفاد من الطريقة التقليدية في الافتتاح، ولكنْ بلمحة سريعة باحثاً عن آثار قديمة مرّ عليها الزمان. ولكن: إذا رَثّت (بليت أو كادت) فقد بقي في بلاد الشام من إرث التاريخ والحضارة – كما قال في البيت الثالث – «الدين، والوحي، والأخلاق...» ... وأثنى الشاعر على أهل دمشق (والشام) قديماً وحديثاً ...

قُمْ ناجِ جِلّق وانشُدْ رَسْمَ مَنْ بانوا ... مشت على الرَّسْم أحداثٌ وأزمانُ[٣٧]

هذا الأديمُ كتابٌ لا كفاءَ لهُ ... رثّ الصحائف باقٍ منهُ عنوانُ[٣٨]

الدين والوحي والأخلاقُ طائفةٌ ... منه، وسائره دنيا وبهتانُ[٣٩]

ما فيه إن قُلّبت يوماً جواهرُهُ ... إلّا قرائحُ من راد وأذهانُ[٤٠]

وخَرج من التاريخ القديم إلى التاريخ الإسلامي؛ فإن الشام كانت تحت ولاية الأُمويين من الفتح إلى نهاية الدولة ١٣٢هـ – ٧٥٠م بدأ ذلك بولاية يزيد بن أبي سفيان[٤١] ثم ولاية أخيه معاوية[٤٢] الذي استمر والياً فخليفة أزيد من أربعين سنة، ثم آل الحكم إلى ابنه وحفيده، وبعدهم إلى الفرع المرواني ابتداءً بمروان بن الحكم.

بنو أُميّة للأنباءِ ما فَتَحوا ... وللأحاديث ما سادوا وما دانُوا

كانوا ملوكاً سريرُ الشرق تحتهمُ ... فهل سألتَ سريرَ الغَربِ ما كانوا[٤٣]

عالين كالشمس في أطراف دولتها ... في كلّ ناحيةٍ مُلْكٌ وسلطانُ[٤٤]

---

34) ديوان شوقي 1: 160-162.

35) في الروض المعطار في خبر الأقطار – لمحمد بن عبد المنعم الحميري – تحقيق د. إحسان عباس – مؤسسة ناصر للثقافة – 1980م – ص169: «جِلّق بالشام، وهي دمشق»، وفي237: «دمشق قاعدة الشام، ودار ملك بني أميّة».
- ومعجم البلدان – لياقوت الحموي (دمشق).

36) ويصحّ أن يكون الخطاب عامّاً.

37) نشدَ الرسم (أي الأثرَ): بحث عنه، وآثار الديار: ما بقي منها. وقوله: (مَنْ بانوا): أي ذهب زمانهم. والإشارة هنا إلى بني أميّة، غاضوا في التاريخ، وتركوا في الحضارةِ والعُمران والفتوح والسّير الذهبيّة القيمة آثاراً خالدة.

38) الأديم: وجه الأرض.

39) طائفة منه: جزء.

40) قرائح: جمع قريحة، يقول: لبني أمية أذهان تشعّ ذكاءً. وقصد بـ (راد): الراديوم: المعدن المشعّ (اتخذه مادّة للتشبيه).

41) يزيد بن أبي سفيان (توفي 18هـ): يزيد بن صخر بن حرب الأموي من رجالات بني أمية شجاعة وحَزْماً تولى مهامّ كثيرة آخرها ولاية الشام. توفي بدمشق. (الأعلام 8: 184).

42) معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) (31 ق.هـ - 60هـ/603-680م) ولي الشام بعد أخيه، وتولى الخلافة منذ سنة 40هـ. (الأعلام 7: 261-262).
تلا معاويةُ (رضي الله عنه) أخاه يزيد في الولاية، ثم آلت إليه الخلافة. قال الزركلي في ترجمته: «أحد دهاة العرب المتميّزين، كان حليماً فصيحاً وقوراً...».

43) نقل شوقي (السّرير) من معناه الشّائع ليدل به على مستقرّ الحكم (كما قالوا عرش، وهو سرير المُلك).

44) مُلك هنا بمعنى حُكم، لأن بني أمية لم يتخذوا ألقاباً إماريّةً ولا ملكيّة.

يا ويحَ قلبي مهما انتابَ أرسُمَهُمْ سَرى به الهمُّ أو عادَتْهُ أشجان[٤٥]

إذن: فُتوحات بني أمية خلَّدها التّاريخ، وسارت بأنبائها الرُّكبان، وكانت دمشق مُسْتَقرّاً لحكمهم، وانطلاقاً لفتوحاتهم، فأين هذا العزّ من مكانة أوربّة في ذلك الزّمان؟

ووَصل بين مجد الشّرق ومجد الأندلس، وذكَر ما أنشده في الأمويين، وهو في ديار الأندلس، بتعاطف وودّ وانتماء:

بالأمسِ قمتُ على الزّهراء[٤٦] أنْدُبُهم واليوم دمعي على الفَيْحاء هَتّانُ[٤٧]

في الأرض منهم سَماواتٌ وألويةٌ ونَيّراتٌ، وأنواءٌ، وعِقبانُ[٤٨]

معادنُ العزّ قد مالَ الرّغام بهم لو هان في تُرْبه الإبريزُ ما هانُوا[٤٩]

بكى على ضياع الأندلس حين وقف على أطلال (الزهراء) عند قرطبة، وهو اليوم يأسى لما صنع الفرنسيّون بالشام.

وذكَر أثرَ دمشق في الحضارة العربيّة الإسلاميّة:

لولا دمشقُ لما كانت طليطلةٌ ولا زَهَتْ ببني العَبّاس بَغْدانُ![٥٠]

ودخل شوقي في هذه الزيارة المسجد الأمويّ، وهي المرة الأولى التي يرى فيها هذا المسجد؛ وسرعان ما استحضر التاريخ، واستحضر المسجد الأموي في قرطبة، وقد بكى شوقي كما أخبر ابنُه حسين[٥١] حين دخل المسجد الأموي الأندلسي، وبكى حين دخل المسجد الأموي بدمشق: أخذه الجلالُ والجمالُ وظلالُ الإسلام، وروعة العُمران، وقُدسيَّةُ المكان.

مَرَرْتُ بالمَسْجد المحزونِ أسألُهُ هل في المُصَلَّى أو المحراب مروانُ؟[٥٢]

تغيَّرَ المسجدُ المحزونُ واخْتَلفتْ على المَنابرِ أحرارٌ وعُبْدانُ[٥٣]

فلا الأذانِ أذانٌ في مَنارته إذا تَعالى ولا الآذانُ آذانُ[٥٤]

وكان شوقي مُولعاً بوصف الأماكن الجميلة، وفي الدّيوان قصائد كثيرة تتناول بلداناً في أوربة وفي تركية، وفي لبنان، وغيرها .... ولكنه أثنى على جمال الغُوطة التي رآها، واستظلّ بظلالها، ومن

45(أرسم جمع رسم: الآثار الباقية.

46(الزّهراء: ضاحية قرطبة، أنشأها عبد الرحمن النّاصر، وألحق بها بساتين وحدائق، وكانت مدينة علم وثقافة أيضاً، وسرعان ما ازدهرت وتوسعت: «الرّوض المعطار»: 195، و«الآثار الأندلسية الباقية» - محمد عبد الله عنان – 8- 92.

47(الفيحاء من أسماء دمشق، وأوصافها (وأصل معنى الأفيح: الواسع).

48(جاء بمفردات الثّناء للأمويّين على سبيل الوصف والتّشبيه، ألوية جمع لواء، ونيّرات جمع نيّرة: مصدر إشعاع شامل، وأنواء (جمع نوء) المراد كرمٌ كأنه مطر الموسم الغزير، وعقبان جمع عُقاب، شبّه به رجالهم الأشدّاء.

49(الرّغام: التُّراب، والإبريز: الذهب الخالص.

50(طليطلة من مدن مَوْسَطة الأندلس. وكانت مركزاً علميّاً وثقافيّاً، وقامت فيها لجان لترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأُخرى. وذكر شوقي (طليطلة) مثلًا وإشارة.

- و(كانت) هنا فعل ماض تام: أي وُجدت (المراد: مركز حضاري).

51(أبي شوقي: 155.

52(مروان بن الحكم، تولى الخلافة بين 64 و65هـ، وعدّه شوقي رمزاً لبني أمية في عدد من قصائده.

53(اختلفت: مرّ بعضها بعد بعض.

54(المنارة هنا: المئذنة.

ثَمَّ صار يزورها كلّما جاء إلى دمشق، وسجَّل أمين سرّه زيارةً مؤرخةً سنة ١٩٣٠ لبلدة دُمّر[٥٥].

آمنتُ باللّه واستثنيتُ جنَّته ... دمشقُ روحٌ وجنّاتٌ وريحانُ[٥٦]

قال الرّفاقُ وقد هبّتْ خمائلها: ... الأرضُ دارٌ لها الفيحاء بُستانُ[٥٧]

دخلتُها وحواشيها زُمُرُّدةٌ ... والشمسُ فوقَ لجينِ الماءِ عقيانُ[٥٨]

ولمّا كانت دمشق جنة كان شجرُ الحَوْر كحوريّات الجنّة الكواشف عن السّيقان:

والحَورُ في دُمَّرٍ أو حول هامَتِها ... حُورٌ[٥٩] كواشفُ عن ساقٍ وولدانُ[٦٠]

وربوةُ الوادِ في جِلبابِ راقصةٍ ... الساقُ كاسيةٌ والنَّحْرُ عُريانُ[٦١]

والطيرُ تَصْدَحُ من خلف العيونِ بها ... وللعيونِ كما للطّيرِ ألحانُ[٦٢]

وأقبلتْ بالنّباتِ الأرضُ مختلفاً ... أفوافهُ فهو أصباغٌ وألوانُ[٦٣]

وقد صفا بَردى للرّيح فابْتَردتْ ... لدى سُتورٍ حَواشيهنَّ أفنانُ[٦٤]

ثم انْتَشَتْ لم يَزُل عنها البلال ولا ... جَفَّت من الماءِ أذيالٌ وأردانُ[٦٥]

وعند الربوة اكتمل المشهدُ البَصَريّ الرائع الحُسن، المُعجَب للعيون، باجتماعه إلى صُداح الطيور[٦٦] و«ألحان» تصفيق الجداول ومساقط المياه، وصوّر الشاعرُ هذه الأماكن بريشة الشاعرِ في مثل روعة المناظر في الرِّياض الشّامية والغياض الملتفّة الأشجار.

وذكَر شَوقي لُبنان، وكان قد أثنى عليه، من قَبل[٦٧]، وبَهره جمالُه، وجعله طريقاً إلى دمشق

---

55) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء – أحمد عبد الوهاب – ص45.

56) الرّوح: نسيمُ الريح. قال الأمير شكيب (شوقي أو صحبة أربعين عاماً) (ص334) قال شوقي «آمنت بالله...» يقلّد الدمشقيين في كلماتهم، لأنهم يستعملون هذه الجملة كثيراً في مواضع العجب.

57) يريد بالرفاق: مُستقبليه في دمشق: رئيس المجمع العلمي العربي وأعضاء المجمع وسائر من كانوا في رحلة الغوطة.

58) ذكر الزمرّد لأنه يغلبُ عليه اللون الأخضر. واللُّجَيْنُ: الفضة، والعِقيان: الذهب الخالص.
يقول: ائتلفت الألوان: خضرة النبات وفِضيّة الماء الذي انعكست عليه الشمس الذّهبية اللون!

59) دُمّر: تبعد عن وادي بردى نحو 4كم، وتعدّ أحد متنزهات مدينة دمشق (المعجم الجغرافي 3: 350).
- والهامة: بلدة في وادي بردى على السفح الجنوبي لجبل طهر الإوز، تبعد 13كم عن دمشق (المعجم الجغرافي 5: 443).

60) الحَوْرُ: أهم الأشجار غير المثمرة في الغوطة، ويشغل عُشر مساحة الغوطة. (غوطة دمشق – د. صفوح خير- ص-515 518).
- ولدان جمع الوليد: الخادم الشابّ ؛ ومنه {يطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا} [المؤمنون: 50]. قال أبو حيان الأندلسي أي: كاللؤلؤ في بياضهم وصفاء ألوانهم.

61) الرَّبوة: من متنزهات دمشق القريبة منها؛ وسميت بذلك لارتفاعها، وهي تنتج الفواكه والخضراوات، ومن المفسرين مَن قال إنها المذكورة في الكتاب الكريم. (البحر المحيط 15: 453).

62) العيون: عيون الماء. وتكثر في الغوطة الينابيع، وتكثر مساقط المياه عند أطراف الجبال كالذي في الهامة، حيث تنحدر من الجبل المطل عليها: «مسيلات مياه كثيرة» - المعجم الجغرافي 5: 443.
وألحان عيون الماء: الخرير.

63) أفواف جمع فُوف: ثياب رقاق موشاة مخططة، شبَّه بها شوقي الأزهار وأنواع الورد.

64) أفنان جمع فنن: غُصن. ابترد جوّ الغوطة بنسائم بَردى. (وجعل المكان كالفناء الذي له ستور تطيف به. وأغصان الأشجار هي تلك السّتور).

65) أذيال جمع ذيل (الثوب)، وأردان جمع ردن (كُمّ الثوب).

66) نقول: صَدَح صَدْحاً وصُداحاً.

67) ديوان شوقي 1: 64 في قصيدة لبنان، ومما قاله:
لبنانُ والخلدُ اختراع اللّه لم ... يوسَمْ بأزينَ منهما ملكوتُهُ

والغُوطة.. إلى ما هو أحلى وأجمل، وعاد إلى أهل دمشق (والشّام عامّةً) الذين جَمعوا الكرَم الموروث أباً عن جَدّ من أيّام (طيّ)[٦٨] و(شيبان) – الذين كثُرَ فيهم الأجوادُ والأنجاد – وذكر من أجداد أهل الشام قبيلة (غسّان)[٦٩] التي استوطنت الشام، وجعلت دمشق (قبل الإسلام) حاضرَتها، كما ذكرَ عبد شمس (أحد أجداد بني أميّة).

وأثنى على دمشق وأهلها، والشّام، على سبيل الكناية بنقاء العرض، وعُلوّ الشّرف: (بيْضُ الأسرّة)، وذكرَ بقاءَ مجدهم القديم، وخلودَ ذكرهم العظيم، فإنّهم بَنُو عَبْدِ شَمْس الباقي ذِكرهم في التّاريخ عالياً، وإن انقضى زمانهم، وتبدّلت الدّنيا بعدهم.

خَلَفتُ لبنان جنّات النّعيم وما ... نُبِّئتُ أنّ طَريقَ الخُلد لُبْنانُ

حتّى انحدرتُ إلى فَيحاءَ وارفةٍ ... فيها النَّدى وبها طَيٌّ وشيْبانُ

نزلتُ فيها بفتيانٍ جَحاجِحَةٍ ... آباؤهم في شباب الدّهر غَسّانُ[٧٠]

بيضُ الأسرَّةِ باقٍ فيهم صَيَدٌ ... من عبد شَمْسٍ وإن لم تَبْقَ تيجانُ[٧١]

قال الأمير شكيب أرسلان في قول شوقي (خَلّفتُ لبنان...): «ظننتُ أن لبنان هو الجَنّة، ولكنْ، بعدما أفَضتُ منه (انتقلت منه) إلى دمشق علمتُ أنّه لم يكن إلّا طريقَ الجنة..»[٧٢] وأن الجنة هي الفيحاء[٧٣].

– والغوطة في شَهر آب (أغسطس) تكون قد أضافت إلى الجمال الطبيعي الغامر ازديان[٧٤] الشّجر بألوان الثّمر، ويكون للسّيران[٧٥] في هذا الوقت معنًى آخرُ مع الاستمتاع بالمناظر؛ هو: اكتمال الجلسات بما يَسُرُّ؛ من نتاج أشجار الغُوطة الكثيفة التي تتشابك أغصانُها، وتدنو للمارّ من تحتها بما يلذّ من ثمراتها...

جَنّاتٌ متواصلةٌ بين رياض وغياض، وجَداولُ رقراقةٌ، ونسائمُ عليلةٌ، وأطيارٌ صَدّاحةٌ، وحركةٌ للفلاحين والضَّمّانة[٧٦] يُتابعونَ حركة الحياة بين المَزارع التي تجودُ بما وهبَ اللّه من الثّمرات، وبين الأسواق ودكاكين الباعة هنا وهُناك...

وتقتضي عاداتُ ضيافة الزّائر (وخاصّة إن لم يكن من بلاد الشام) أن يَتناول عدداً من الوجبات في ظلّ (السِّيران) فتَتمّ ضيافةُ الزائر... أو تأخذ بُعْداً إضافيّاً...

وختم شوقي القصيدةَ الفذّة بالأبيات من ٣٠ إلى ٤١، وفيها:

---

68) طيّ (وطيّء): منها حاتم الطائي، قالوا في أمثالهم: أجود من حاتم (الميداني 1: 326).
وكان معن بن زائدة من أجواد العرب، وفي أمثال الميداني 1: 368 «حدِّث عن معنٍ ولا حَرَج!» ونسبة معن في شيبان.

69) غسّان (يعني الغساسنة) وأصلهم من عرب اليمن.

70) جحاجحة جمع جَحْجاح، وجَحْجح: السيّد الكريم السَّمح.

71) العرب تقول: فلان أبيض أي نقيّ العرض، وبيض الأسرة: كناية عن علو الشرف ونقاء العرض.
- والصَّيَدُ: صفة الرَّجل الأصْيَد: المتكبّر. المزهوّ بنفسه.

72) شوقي أو أربعون سنة في صحبة أمير الشعراء – أضواء السلف: 334.

73) أصل معنى الفيحاء: الواسعة الممتدة، وصارت الكلمة صفة لدمشق، ثم عَلماً عليها.

74) مصدر: ازدان: حَسُن وجَمُلَ.

75) السّيران: كلمة سورية اشتقوها من مادة (س ي ر)، وهي قريبة من (فُسْحَة) المصرية؛ ولكنها أوسع دلالة؛ والمراد: رحلة من المدينة إلى روضة أو غيضة أو بستان، يحمل فيها القاصدون زادهم حاضراً (جاهزاً) أو يقيمون آلة الطبخ والتّحضير للمائدة في أحضان الطبيعة، وقد يكون مع القاصدين موادّ غذائية لأكثر من وجبة. ويكون معهم أدوات التّسلية المختلفة. وتمتد الرحلة عادة نهاراً كاملاً، وقد تمتد إلى الليل، وخُصوصاً في الأيّام المقمرة.

76) الضّمّانة في كلام أهل الشام جمع الضّمّان: الذي يشتري الثمر على شَجره بمبلغ يُتفق عليه، ويبقى في المزرعة أو البستان إلى نهاية الموسم.

– شكرٌ لمُضيفيه، وثناءٌ عليهم وعلى كرمهم، وعلى بلدهم؛
– ونصيحَةٌ لأهلَ دمشق وسائر بلاد الشام باغتنامِ الوقتِ لبناء بلدٍ يعيدُ ذكريات المجد القديم، شام بني أميّة، فالذي مضى قد مضى، فابنُوا بناءً جديداً، وأحْيُوا تراثكم التّليد ...

وفصّل شوقي في مقتضيات النَّهضة من: إتقان العمل، وتسخير المال لبناء الدَّولة، وائتلاف أبناء البلاد، والتفافهم حول مصالحهم العامّة.

وألمحَ إلى تسخير شعره لأهل الشّام نصيحةَ واحد كأنّه من أهل البلد؛ والحقيقة أن هذه الزّيارة عالية القيمة والأثَر في حياة شوقي وفي شعره، وكان نتاجُها في الشّام سروراً وبهجة وإعجاباً ورضًا ...

وأشار إلى أن مصر والشام، وسائر بلاد العرب وطنٌ واحدٌ، يتكلم لغة واحدة مُشتركة لا تنقطع أسبابها، قال:

يا فِتية الشّام شُكراً لا انقضاءَ لهُ ... لو أنَّ إحسانكم يَجْزيه شكرانُ[77]
ما فوق راحاتكم يوم السَّماحِ يَدٌ ... ولا كأوطانكم في البشر أوطانُ[78]
خَميلةُ اللّه وشَّتْها يداه لكمْ ... فهل لها قَيّمٌ منكم وجَنّانُ؟[79]

نَصائح شوقي (الأخوية) مبسوطةً، ولا شكّ في أن هذا مَقْصُود منه. فقد كان الفرنسيُّ المحتّل يفرّقُ بين الناس، ويكيدُ لهم، وكان الاتّحاد والتوافق أساس نجاح الجهاد ضده، ومقاومته حتى طرده.

وقال، وهو يشير إلى الدّولة السورية آنذاك:

شيدوا لها المُلْكَ وابْنُوا ركنَ دَولتها ... فالمُلكُ غَرْسٌ وتجديدٌ وبُنيانُ[80]
لو يَرْجِعُ الدَّهْرُ مَفْقُوداً له خَطرٌ ... لآبَ بالواحد المَبْكيِّ ثَكْلانُ[81]
المُلكُ أنْ تَعْمَلُوا ما اسْطَعْتُم عملاً ... وأنْ يبينَ على الأعمالِ إتقانُ[82]
المُلْكُ أن تُخْرجَ الأموالُ ناشطةً ... لمَطْلَبٍ فيه إصلاحٌ وعُمْرانُ
المُلْكُ تحتَ لسانٍ حولَهُ أدبٌ ... وتحت عَقلٍ على جَنْبيه عِرْفانُ
المُلْكُ أنْ تتلاقَوْا في هَوى وطنٍ ... تفرّقت فيه أجناسٌ وأدْيانُ

راوح شوقي بين أسلوبي الخبر والإنشاء في نصائحه ليصل إلى ما يريد بأكثر من وسيلة، وكرّر

77) الفِتْيَةُ جمع الفَتى، ولها معانٍ: السَّخِيّ (الكريم) وذو النّجدة.
78) يقول لا أحد يفوقكم في الكرم والسماحة.
- والرّاحات جمع الراحة: اليد.
79) الخمائل جمع الخميلة: الشجر الملتف، كنّى عن الغوطة بالخميلة.
- والجَنّان: البستاني. وهي فصيحة، ولكنها من استعمال أهل الأندلس، نقلها شوقي من هناك (وهي رائجةٌ الآنَ في بلاد المغرب). وكان ابن خفاجة – لكثرة وصفه الطبيعة في الأندلس – يلقب بـ: جَنّان الأندلس.
80) ينصح شوقي أهل الشام، ويُخلص في النصح وقد عَدَّ نفسه منهم، أن يبنوا دولتهم، ويُبدعوا مجداً جديداً كالقديم الذي مضى. والذي يذهب لا يعود.
81) آبَ به: رجع.
82) معنى البيت مأخوذ من حديث مشهور: «إن الله يُحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه».

كلمة (الملك) التي أوردها لمعنى الدولة القوية المتماسكة، ونبّه على إرادة البناء الصادقة، والعمل الجادّ المتقن، وبذل المال لإتمام ذلك، والاجتماع على قلبٍ واحدٍ كما يجتمعون على لسان واحد، وعلى تفكيرٍ سليم، يبلغ مَقاصده.

نصيحةٌ مَلؤها الإخلاصُ صادقةٌ والنُّصح خالصُه دينٌ وإيمانُ

وجاء البيت التالي على مَوردِ الحكمة وضربِ المثل، ولكنّه في الحقيقة يريد أن يوصلَ نصيحته بلطفٍ ورقّة، ومودّة:

والشعرُ ما لم يكنْ ذكرى وعاطفةً أو حكمةً فهو تقطيعٌ وأوزانُ

ونحن في الشّرق والفُصحى بنو رَحمٍ ونحن في الجُرح والآلامِ إخوانُ

يُسَوِّغُ لأهل دمشق، وسورية تقديمه النّصح لهم بأنّ من مهمّة الشعر أن يكون كما قال مُتَضّمناً: الذكرى والعاطفة الصادقة والحكمة الخالدة. وإلّا فلا قيمة للشعر عندما يكون كلاماً موزوناً خالياً من الفائدة والأهميّة.

(٨) نكبة دمشق

هذه القصيدة

في ١٢ آذار (مارس) نشر أحمد شوقي في جريدة الأهرام قصيدة جديدةً له عن دمشق والشام، وفي مقدمة القصيدة من الديوان أن فرنسا كانت قد اضطُرّت إلى إجابة بعض مطالب سورية بعد ثورة دمشق، فأصدرت بيانا في ١٥ كانون الثاني (يناير) أعلنت فيه إلغاء القيود عن الحرّيات المشروعة، وإجراء انتخابات للجمعية التأسيسيّة؛ وشارك (شوقي) أهل سورية في فرحهم[٨٣].

وعنوان القصيدة في الديوان: «ذكرى استقلال سورية وذكرى شهدائها»[٨٤].

«ونكبة دمشق» هذه التي جعل (شوقي) عبارتها عنواناً لقصيدة رائعة نظمها بمناسبة ما أصاب دمشق على يد المُستعمر الفرنسي، وكان قد مرّ على وجوده في سورية خمس سنوات قاسية، تأهّب فيها السوريون للثورة على العدوّ، والتخلّص منه بالوسائل المختلفة. وحين زار شوقي دمشق، وحضر حفل تكريمه في ٢٥ آب ١٩٢٥ كانت الثورة قد بدأت طلائعها: جمراً تحت الرّماد، وما لبثت أن اشتعلت نارُها، وأوقع ثوار الجبل الهزيمة المُرّة بكتيبة فرنسية في (المزرعة)، وهبَّ ثوار دمشق والغوطة يتابعون الحركة ضد الاستعمار، ويسندون ثورةَ الجبل، ووصل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي أسّس حزب الشّعب المقاوم إلى الجبل، ولقي سلطان باشا الأطرش، وتضافرت الجهود ضد الفرنسيين في حركة منظمة[٨٥].

ووقعت حوادثُ مختلفة ضد الإفرنسيين في الغُوطة وغيرها، ثم إنّ فرقة من المجاهدين دخلت دمشق، ووصلت إلى مقرّ الجنرال الفرنسي (ساراي) وكاد أن يقع في أيديهم، ولما لم يستطع هو وكتائبه التغلب على الثوار التفت إلى مدينة دمشق: في أحيائها الداخلية الحيوية، وسلّط المدافع والدبّابات، وألقت القوات الفرنسية من قلعة المزة وقلعة دمشق حُمَمها المدمّرة، والحارقة على أحياء دمشقية

83) ديوان شوقي 1: 364.
84) تشغل القصيدة ما بين 364 و368 من الجزء الأول من الدِّيوان.
85) انظر: الثورة العربية الكبرى – تاريخ مفصّل للقضية العربية – أمين سعيد – مكتبة مدبولي – القاهرة – 326-327.
- وتاريخ الثّورة السّورية الكبرى في عهد الانتداب الفرنسي – أدهم الجندي – 344-345.

شوقي في إسبانيا مع أولاده

عامرة، زاهرة، غاصّة بالقاطنين من السّكان، وحوانيت التجار وسائر معالم تلك الأحياء[٨٦]، واستمرّت قوات المستعمر الفرنسي تقتل وتحرق وتخرّب ثلاثة أيّام: من الأحد ١٨ تشرين الأول إلى مساء الثلاثاء ٢٠ تشرين الأول: فهدّمت الدُور الأثريّة والمنازل العريقة؛ وأُحرقت الدكاكين والحوانيت والمصانع، وقُتل الأبرياء: في جريمة شنيعة تأثر لهاَ العالم كلّه، ولم تستطع فرنسا نفسها الخلاص من اللّوم والاستهجان العالمي[٨٧]، وخلعت الجنرال ساري وعيّنت بعده (جُوفنيل).

وذكرت التواريخ ومذكرات السياسيّين والإعلاميّين الخسائر الفادحة في الأرواح وفي الممتلكات، «وقد اشتدّ القصف المتواصل في الأسواق الداخلية، ولا سيّما الميدان، والشاغور، وباب السريجة.... وأصاب الدّمار سوق الحميدية وشارع مدحت باشا، وأصاب القصف جامع السّنانية...»[٨٨].

وأشار فيليب خوري[٨٩] إلى «تدمير الكنوز المعماريّة والأثرية» في هذا العُدوان. ودُمّر حي سيدي عامود، وبقي على مكانه اسم (الحريقة) إلى اليوم، وإن كان العُمران قد انطلق فيه من زمان.

بين يدي القَصيدة

من كتب (الذكريات) التي عُنِيت بأحمد شوقي كتاب: «شوقي أو صداقة أربعين سنة» للأمير

86) «خرب واحترق 600 ستمئة دار عظيمة الجانب خلال 24 ساعة» وزاد الجنود الفرنسيون «النهب والسّلب من الممتلكات والمخطوطات والمدّخرات فكانت النكبة مضاعفة».
انظر: لطفي الحفار 1885-1968 مذكراته، حياته، وعصره - سلمى الحفار الكزبري –146-168.
- و: ثورة سورية الكبرى: أسرارها وحوادثها ونتائجها – تنبؤات خطيرة عن كارثة فلسطين الحاضرة – مذكرات الزعيم الشهيد عبد الرحمن الشهبندر – ص85-88.

87) وقد ظهرت احتجاجات دولية متعدّدة على همجية فرنسا في سورية في أحداث دمشق – سماها فيليب حتي «استنكارات دولية».
- سوريا والانتداب الفرنسي – سياسية القوميّة العربية – (فيليب خوري) -1997 ص: 221.

88) لطفي الحفار: 147.

89) سورية والانتداب الفرنسي: 220.

شكيب أرسلان[٩٠]، فقد سرد في كتابه حكايات وأخباراً ومواقفَ كثيرة، وسجّل من لقاءاته الطّويلة معه، وانتخب قصائد كاملة أو قطعاً من قصائد أحمد شوقي بين مراجعة وتعليق وإشادة وتبيين. وكان أرسلان يعدّ شوقي خليفة أبي الطيب المتنبي: وكانت لشكيب أرسلان وقفة خاصّة عند قصيدة شوقي المُعَنونة «نكبة دمشق»، وأجْمَلَ مقاصدَها، ونبّه على إشاراتها، وربَطها بالتاريخ والأحداث المُعاصرة.

وقد رأيتُ الاستفادةَ ممّا كتبه الأمير عن القصيدة، وحَلَّيتُ الكلامَ بحواشٍ إضافيّةٍ بين شرحٍ وإحالةٍ وتعليق.

قصيدة شوقي في الثورة السُّورية[٩١]

لمّا دَمَّر الفرنسيّون دمشق في إبّان الثورة السورية – وفي أيام العداوة بين السوريِّين والفرنسيين – أُقيمت في القاهرة حفلةُ استنكار لذلك العَمل، وتُليت فيه الخُطَب والقَصائد، فقال شوقي القصيدة الآتية؛ وتسابقت الصحف إلى نشرها، فاشترت جريدة (السياسة) امتياز السبق إلى نشر هذه القصيدة بأربعين جنيهاً، وضُمّ هذا المال إلى إعانة منكوبي الثّورة السُّورية[٩٢]:

سلامٌ من صَبا بَردى أرقُّ ... ودمعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دمشقُ![٩٣]

ومعذرةُ اليَراعة والقَوافي ... جَلالُ الرُّزء عن وصف يَدِقُّ[٩٤]

وذكرى عن خَواطرها لقلبي ... إليك تَلَفُّتٌ أبداً وخَفْقُ[٩٥]

وبي ممّا رمتك به اللّيالي ... جِراحات لها في القلب عُمقُ[٩٦]

دخلتك والأصيلُ له ائتلاقٌ ... ووجهك ضاحكُ القَسمات طَلْقُ[٩٧]

وتحت جِنانك الأنهارُ تجري ... وملءُ رباكِ أوراقٌ ووُرْقُ[٩٨]

وحَوْلي فتيةٌ غُرٌّ صِباحٌ ... لهم في الفضلِ غاياتٌ وسَبْقُ[٩٩]

90(الأمير شكيب أرسلان: (1286 – 1366هـ/-1869 1946م) شكيب بن حمود أرسلان من سلالة التنوخيّين ملوك الحيرة. عالم بالأدب والسّياسة، مؤرخ، من كبار الكتّاب، يُنعت بأمير البيان، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، ولد في لبنان، وسكن دمشق مدّة، وصار عضواً في مجلس المبعوثان بإستانبول. وسكن في أوربة مدّة. عالج السياسة الإسلامية قبل انهيار الدولة العثمانية، وكان من المتحمسين من أنصارها. وكانت وفاته في بيروت. له مؤلفات في الأدب والسّياسة والتاريخ والفكر الإسلامي. وله ديوان شعر. (الأعلام 3: 173-174).

91(شوقي أو صداقة أربعين سنة – بقلم أمير البيان شكيب أرسلان –ص:252.

92(ديوان شوقي 1: 398

- وقد شُكّلت في دمشق «جمعيةُ إغاثة منكوبي الثّورة» واستمر عملها إلى منتصف سنة 1926 (انظر: لطفي الحفار – 146(.

93(لا يكفكف: لا ينقطع دَرُّه.

94(اليَراعة: القصبة التي تُقَلَّم، ويكتب بها مغموسة بالحبر. والجمع: يَراع. والقوافي هنا إشارة إلى القصائد. والرزء: المصيبة.

95((ها) في كلمة خواطرها ضمير يعود على دمشق.

96(المراد بالليالي هنا مصائب الزمان المختلفة.

97(ائتلق البرقُ: لمع وأضاء، واستعاره شوقي للأصيل (لإشراقته قبل المغيب). والقَسَمات جمع القَسْمة: ملامح الوجه.

98(الأوراق: أوراق الشجر، والوُرْقُ جمع ورقاء: الحمامة (يغلب أن تكون رمادية اللون).

99(غُرّ: جمع أغرّ: كرام (وأصل معناه البياض)؛ وصِباح جمع صَبيح: حسن، جميل (شكلًا وخُلُقاً).

- قال حسين شوقي (ابن الشاعر) في كتابه عن أبيه: «إن أباه حين زار دمشق [مدعوّاً من المجمع] استقبله شبابها استقبالاً عظيماً، وقد ذكر هؤلاء الشباب....».

- أبي شوقي: حسين (أحمد) شوقي – ص: 150-151.

على لَهَواتهمْ شعراءُ لُسْنٌ ... وفي أعطافهم خُطباءُ شُدْقُ

رواةُ قصائدي فاعجبْ لشعرٍ ... بكلّ محلّة يرويه خَلْقُ

صباح الوجوه، هم – بلهَواتهم كنايةٌ عن أفواههم – شعراءُ لُسْنٌ (جمع ألْسَن، وهو الفصيح)، وفي أعطافهم – كناية عن مواقفهم – خُطباء شُدْقٌ جمع أشدق، وهو المِفْوّه البليغ. ومع هذا فإنهم رواةُ شعري الذي: بكلّ محلّة من الدّنيا له رواةٌ. قلت (والسّياقُ للأمير أرسلان): لم يبالغْ شوقي في هذا، ولكنْ لم يَروِ عنه الرُّواة من الشعر كما رووا من هذه القصيدة[100]، ثم قال:

غَمَزْتُ إباءهم حتى تَلَظَّتْ ... أُنوفُ الأُسْدِ واضطرم المدَقُّ[101]

وضجّ من الشَّكيمة كلُّ حُرٍّ ... أبيٍّ من (أُمَيَّة) فيه عِتْقُ[102]

لحاها اللّه أنباءً توالتْ ... على سمع الوليّ بما يَشُقُّ[103]

يفصّلها إلى الدنيا بريدٌ ... ويُجْملُها إلى الآفاق بَرْقُ[104]

تكادُ لروعة الأحداث فيها ... تُخالُ من الخُرافَة وهي صدقُ

وقيل: معالمُ التاريخ دُكّت ... وقيل: أصابها تَلَفٌ وحَرْقُ

– يقول: إنه كانت تَأتي أخبارُ هذه القارعة النازلة بدمشق، الصّاكّة للأسماع، مُجْملةً بالبرقيّات، مفصّلة بالكتابات، يكادُ الناسُ يحسبونها من الخُرافات المُخَيَّلة؛ والحقيقةُ أنّها وقائعُ وقعت فعلاً. وقيل إنه دُمّر ذلك اليوم أبنيةٌ تاريخية وبيوتٌ مزدانة بأفخر الصنعة العربيّة، ثم قال:

ألست – دمَشْقُ – للإسلام ظئراً؟ ... ومُرْضعَةُ الأُبُوّة لا تُعَقُّ![105]

صلاحُ الدين تاجُك لم يُجَمَّل ... ولم يُوسَمْ بأزْينَ منهُ فَرْقُ[106]

وكل حضارةٍ في الأرض طالتْ ... لها من سرحك العُلْويّ عِرْقُ[107]

سماؤك من حُلى الماضي كتابٌ ... وأرضُك من حُلى التاريخ رقُّ[108]

---

100) سبق في سياق القصيدة السابقة «قم ناج جلّق...» أن الأدباء والنقاد جعلوها غُرّة شعره في دمشق والشام وأهلها. وشعره في دمشق والشام ينافس بعضه بعضاً!

101) أصل معنى الغمز: الجَسّ (جسّ التين ليعرف أناضج هو أم فِجّ، استعاره شوقي لمعنى: جَرّب أو اختبر إباءهم). و: تلظَّت النار: تلهّبت. واضطرم: اتّقد. والمِدَقّ: قصبة الأنف. تقول العرب: حَمِي أنف فلان: اشتدّ غيظه وغضبه.

102) الشكيمة: حديدة اللجام المعترضة في فم الفَرس. والعِتقُ: الكرَمُ ونجابة الأصل.
يقول إن أهل دمشق والشام يأنفون من وجود المحتلّ عن إباءٍ وشَمَم وأصالة موروثة من أيام أجدادهم بني أميّة.

103) الوليّ: النّصير والمُحبّ. ولحاها: دعاء عليها، الكلام عامّ في تأثر كلّ مَنْ بلغته أنباء نكبة دمشق، وقصد نفسه أولًا بـ (الوليّ).

104) المراد ما يحمله البريد، وما تنقله البرقيات.

105) الظئر: المرضعة والمربيّة. لقد كنت يا دمشق كالأم الحانية، الراعية للإسلام، وانطلاقته في أنحاء الدنيا. وهذه الأم تستحق البرّ لا العقوق.

106) الفرق: الفاصل بين صفّين من شعر الرأس. ومراده الرأسُ جملةً (الذي يُتَوّج).
- وقد مرّ الكلام على صلاح الدين في فقرة خاصّة، وانظر فقرة: خلاصة وخاتمة.

107) السّرح جمع السّرحة: الشجرة الطويلة العظيمة. يقول: من تراث دمشق العلمي والفني والأدبي عرقٌ في حضارات الأمم كلّها.

108) الرَّق: (بفتح الراء): جلدٌ رقيق كان يكتب عليه.

بَنَيْت الدّولة الكبرى ومُلكاً غبارُ حَضارتَيْه لا يُشقُّ[109]
له بالشام أعلامٌ وعُرْسٌ بشائرُه بأندلسٍ تُدَقُّ

بعد أنْ ذكر صلاحَ الدين دفينَ دمشق ذكر الدَّولة الكُبرى، ويريد بالدولة الكُبرى: دولةَ بني أُمَيَّة؛ لأنه لم تتسّع فتوحات الإسلام في دَوْرٍ كما اتّسعت في زمانهم لا سيّما خلافة عبد الملك بن مَرْوان، [وابنه الوليد].

ويشيرُ بقوله: «غبار حضارتيه... الخ» إلى الحضارة الأُمويّة في دمشق، والحضارة الأموية في قُرطبة، فإن الثانية لها عروقٌ من الأولى.

ثم قال:

رِباعُ الخُلد – ويحكَ – ما دَهاها؟ أحقٌ أنّها درَستْ؟ أحقٌ؟[110]
وهل غُرَفُ الجِنانِ منضّداتٌ وهل لنعيمهنّ كأمْسِ نَسْقُ؟[111]
وأينُ دُمى المقاصرِ من حِجالٍ مَهَتَّكةٍ وأستارٍ تُشَقُّ؟[112]
برزْنَ وفي نواحي الأيكِ نارٌ وخلف الأيكِ أفراخٌ تُزَقُّ[113]
إذا رُمْنَ السّلامةَ من طريقٍ أتَتْ من دونه للموت طُرْقُ!
بليلٍ للقذائفِ والمَنايا وراءَ سمائه خَطْفٌ وصَعْقُ[114]
إذا عصف الحديد احْمرّ أُفْقٌ على جَنباته، واسْوَدَّ أُفْقُ[115]

إذا قرأ القارئ هذه الأبيات تصَوّر الحالة كأنّه يراها بعينه: عقائل مقصورات في الحجال برزْنَ إلى الطّرق للنّجاة، والنّارُ تعملُ في البُيوت، وتأخذ على الهاربين والهاربات أفواه الطرق، وعلى أيدي أولئك العقائل أطفالٌ كالأفراخ التي تزقّها أُمّهاتها بمناقيرها، وقد ضاقت على الناس الأرضُ بما رَحُبَت، فكيف سلكوا فهي النار النازلةُ عليهم في جَوْف الظلام: تخطفُ الأرواح، وتَصْعَقُ الأجسام طول الليل – لأنّ ضرب دمشق بالمدافع استمر ٥٦ ساعة – كلّما نزلت كرةٌ من كرات الدّيناميت احمرّ جانبٌ من الأفق بلون اللّهيب، واسْوَدّ الجانب الآخَرُ بلون الدُّخان. ويستحيلُ على أيّ شاعرٍ أن يبلغ هذه الدرجة من البلاغة في وصف القذائف الحربيّة، ولا سيّما تحت الظلام.

---

109) لا يُشق غباره: لا يسبقه أحد. لا نظيرَ له.
110) «ويحك» ويح: كلمة توجّع وترحم، وتجيء بمعنى الويل. يخاطب مَنْ نقل أخبار دمشق القاسية.
111) منضّدة: منسقة، وجعلها غرفاً من الجنان (جمع جنّة) إشارة إلى غنى دمشق والغوطة بالبساتين والرّياض.
112) المقاصِر والمقاصير جمع المقصورة: الحُجْرة. والحجال: جمع الحَجلة. ساتر كالقبة يزيّن بالثياب والستور للعروس. والدمية (جمعها دُمًى) الصورة الممثلة (التمثال) من عاجٍ وغيره. ويضرب بها المثل في الحسن.
- وتقول العامة في الشام في الفتاة الحُسّانة: (أحلى من الصّورة).
113) أفراخ جمع فرخ: الصغير من الطير، وزقّ الطائر فرخه: أطعمه. شبه الأطفال بصغار الطير.
114) صَعِقَ: أصابته الصاعقة. وتُستعار للشدائد.
115) الحديد هنا كناية عن الأسلحة المختلفة.

ثم قال:

سَلِي مَنْ راعَ غيدَك بعد وَهْنٍ ... أ بَيْنَ فؤاده والصّخر فرقُ؟[116]

وللمستعمرين وإن ألانُوا ... قلوبٌ كالحجارة لا تَرِقُّ

رماك بطيشه ورمى فرنسا ... أخو حَرْبٍ به صَلَفٌ وحُمْقُ[117]

إذا ما جاءه طلّابُ حقٍّ ... يقول «عصابةٌ» خَرجُوا وشَقُّوا[118]

يقول: هل مَنْ أدْخَل على نساء دمشق هذا الهول كلّه يقال: إنّ بين قلبه والصخر فرق؟ لا لعَمْري! إنّ قلبه لكالصخر قسوةً، وهذه حال الدولة الاستعمارية بأسرها، فإنّ رجالها – وإن ألانوا القول – فَلينُهم رياء، وفعلهم بعكس قولهم، وقلوبُهم كالحجارة أو أشدّ قسوة.

وقد رماك يا دمشق، ورمى فرَنسا – نفس وطنه – بسبب رَمْيك – قائد متكبّر أحمق، يعني به الجنرالَ ساراي، وقد كان إذا جاؤوا يَرْجُونه الكفّ عن ضرب دمَشق أجابهم أنه إنما يضرب عُصاةً شقُّوا عصا الطاعة[119].

ويُشير شوقي بقوله: «رمى فرنسا» إلى أن هذا الفعل بقي سبّةً وعاراً في التاريخ على فرنسا بسبب هذا القائد، ولم يقدر أن يدافع عنه أحد:

دمُ الثوار تعرفُه فرنسا ... وتعلمُ أنّه نورٌ وحقُّ

جرى في أرضها، فيه حياةٌ ... كمُنْهَلِّ السّماء، وفيه رزقُ[120]

بلاد ماتَ فتْيَتُها لتَحْيا ... وزالوا دون قومهمُ ليبقوا

وحُرّرت الشعوبُ على قناها ... فكيف على قناها تُستَرقُّ؟[121]

يريد أنّ فرنسا لها درايةٌ بدم الثوّار، وهي تعلمُ ما أوجدتهُ الثورةُ فيها من حقوق كانت ضائعة، وأنوار علم كانت خافية، وأن الثورةَ كانت حياةً لفرنسا، وقد مات فيها البعضُ ليحيا الكلُّ. ومن عادة الشعُوب أن تنال حرّيتها برؤوس الحراب، فكيف يُعقل أنّ سورية تزادُ رِقّاً على رِقٍّ برؤوس الحِراب بعد أن سفك السّوريون دماءهم لأجل الحرّية؟

---

[116] الوَهَنُ: منتصف الليل، أو بعده بقليل.

- والغيد جمع غيداء: الفتاة الناعمة الليّنة. أراد مُطلق نساء دمشق.

[117] الصّلف: العجرفة والتكبّر. وأخُو الحرب (الإجرامية) الجنرال الفرنسي (ساراي) وذكره شوقي أيضاً مع ناره المحرقة فقال (الديوان 2: 492).

رعثاء أرسلها ودسّ شواظها ... في حجرة التاريخ أرعنُ أحمقُ

[118] أصل معنى العصابة الجماعة، وضيّقوا معناها في العصر الحديث لتدل على جماعة السُّوء.

[119] في كتاب: تاريخ الثورات السورية لأدهم الجندي (-344 345) «أن وفداً تألف لإقناع (ساراي) بإيقاف ضرب دمشق وإحراقها، كان مؤلفاً من: سعيد الجزائري، وتاج الدين الحَسني، ونسيب حمزة، فأجابهم بأنه لن يتوقف القصف والتدمير حتى انقضاء المدة المعيّنة وفق الخطة المرسومة، والأوامر المحدّدة، واشترط أن يقدم الأهالي مئة ألف ليرة ذهبية غرامة حربية (!!) وثلاثة آلاف بندقية مع عتادها، وأنّ كل رصاصة تطلق من أحياء دمشق سيكون نصيب ذلك الحيّ التدمير، وحدّد موعداً لتأدية الغرامة، وإذا لم يتم تنفيذ الشروط سيستمرّ قصف المدينة بالمدافع حتى تزول دمشق من الوجود!!».

[120] السماء هنا: المطر. وانهلّ: انسكب غزيراً.

[121] القنا جمع القناة: الرُّمح.

ثم قال:

بني سوريةَ اطَّرحوا الأماني ... وألقُوا عنكم الأحلامَ ألقوا[١٢٢]

فمن خدَعِ السياسةِ أن تُغَرُّوا ... بألقاب الإمارة وهي رِقُّ[١٢٣]

وكم صَيَدٍ بدا لك من ذليلٍ ... كما مالت من المصلوب عنقُ[١٢٤]

فتُوقُ الملك تحدثُ ثم تمضي ... ولا يَمضي لمُختلفين فَتْقُ

يخاطبُ أبناء سورية قائلاً: ذَرُوا الأماني، وانْبُذوا الأحلامَ الكواذب، ولا تغترّوا بلقب (الدولة السورية)، ولا (لبنان الكبير)، وما أشبَهَ ذلك من «ألقاب مملكة في غير موضعها»، فإنّ كل هذه الحكومات أسماء ما أنزل اللّه بها من سلطان، وكلها مُستعبَدة لفرنسا[١٢٥].

وقد تجدون مَن عليه لقب (أمير) أو (وزير) وهو جالس على كرسيّه، وإنما هو مائل العنق ينظر إلى نقطة واحدة: يخالهُ الناس أميراً أصيدَ من شدة كِبْرِه، وليس ذلك بعبرة، بل المصلوبُ أو المشنوق يميل بعنقه وهو ميّت!

وقد أنّث شوقي (العُنق) وليس ذلك بخطأ، وإن كان التذكير أقوى.

ثم قال: إنّ فُتوق المُلك تحدثُ في كل مكان، ولكنّها قابلة للرَّتق إلّا إذا انصدعت الوحدة، وتفرّقت كلمة الشعب، فذلك فتقٌ لا رَتْق له، وشقٌّ لا يُحاص، فإيّاكم وأن تصدعوا وحدتكم بالخلاف فيما بينكم.

ثم قال:

نصحتُ ونحن مختلفون داراً ... ولكنْ كلّنا في الهمِّ شرقُ

ويجمعنا – إذا اختلفت بلادٌ – ... بَيانٌ غيرُ مختَلف ونُطقُ

يقول: ليست مصر والشام بدار واحدة [من الناحية الجغرافيّة] ولكن مصر والشام كلتاهما من الشرق [البلاد العربية والإسلامية]، فبينهما جامعةٌ شرقيّةٌ، ولسان كل من القطرين هو اللسانُ العربيّ، وأيّةُ رحم شابكة أكثرُ من هذا؟

وقفتم بينَ موتٍ أو حَياةٍ ... فإن رُمْتُم نَعيمَ الدّهر فاشْقُوا[١٢٦]

---

[122] الأحلام هنا: الأفكار الضعيفة والآراء السخيفة.

[123] الرقّ: العبودية: حقيقةً أو مجازاً.

[124] الصَّيَدُ مصدر صَيِدَ والأصيد: المتكبّر، المزهو بنفسه.

[125] فصّلت التواريخ في هذا الإجمال الذي قدّمه الأمير شكيب، ونقف، مثلًا، عند كتاب فيليب خوري (سوريا والانتداب الفرنسي) – مرجع سابق – قال (ص: 83-84): «حين أمسك الفرنسيون بحصّتهم من (الكعكة) يعني سورية، بدؤوا يسعون إلى تقسيمها إلى قطع أصغر بهدف عزل الحركة القومية». قال: «وقد أدّى إنشاء دولة لبنان الكبير إلى ما هو أكثر من نقل مقاليد الحكم إلى أقلية حاكمة، فهو أيضاً أدام اعتماد الموارنة على الدعم الفرنسي للبقاء في الحكم».
وفيه أن «انحياز فرنسا إلى جانب لبنان أثار مشاعر العداء للفرنسيّين لدى الحركة الوطنية في سورية».
وعمل الفرنسيون على إحداث تغييرات قانونية لمنع البلاد من التوحّد سياسيّاً ومن ذلك: (-84 85):
«- دمشق، وحلب لواءان منفصلان (بدلاً من اللواءين العثمانيّين).
- سنجق (إسكندرون) إدارة مستقلّة إلى حد بعيد.
- جبل الدروز وحدة مستقلّة إلى حدّ بعيد.
- الأقضية الجبلية خلف اللاذقية لواء خاص منفصل.
- ومن بعد ذلك التنازل عن إسكندرون لتركيا (تمّ هذا سنة 1938) لتحييد تركيا إذا اندلعت حرب».

[126] هذا في معنى قول الشاعر:

وللأوطان في دَم كُلّ حُرٍّ
يدٌ سلَفت ودَيْنٌ مُستَحقُ

ومن يَسْقي ويَشربُ بالمَنايا
إذا الأحرار لم يُسْقَوْا ويَسْقوا؟[١٢٧]

ولا يبْني الممالكَ كالضّحايا
ولا يُدني الحقوقَ ولا يُحِقُّ

ففي القتلى لأجيالٍ حَياةٌ
وفي الأسرى فدًى لهمُ وعِتقُ

وللحريّة الحمراء بابٌ
بكلّ يدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ![١٢٨]

ينثر شوقي بهذا النظم نَصائحه لأهل سورية مبنيّةً على التجربة، والتّاريخ، والمبادئ السَّرْمديّة، فيقول للسوريّين: وقفتم الآن بين الموت والحياة، فإن رُمْتُم الراحة الكبرى فاتْعَبُوا، وإن نَشَدتم النَّعيم المُقيم فاختاروا لأنفسكم الشقاء مدةً من الزمن؛ لأنّه لا يدرج النعيم إلا من أوكار العذاب. وإن دماء الأحرار المسفوكة في سبيل الأوطان ديُونٌ مستحقة لا بدّ للدهر من أن يتوفّر على إيفائها. ومَنْ لعمري يُسْقى ويشرب بكؤوس المنايا نَهْلاً وعَلاً إذا كان أحرار البلاد لا يشربون بتلك الكؤوس؟ ولا يَسْقونَ بها؟.. وقال: إنه لا شيء يقوم عليه أساس المُلك مثلُ الضَّحايا، ولا ما يُحقُّ الحقوقَ غيرها. فكل أمّة بَذلت في سبيلَ حرّيتها دماءً فإن تلك دماءً تنال لها حقوقها في الحرية، ولا يقدر أن يكابر فيها مُكابر. وبالجملة فلا تحيا الأمم إلا بقتل بعض رجالها، ولا يعيشون طلقاء إلا بأسر البعض الآخر. وما قرع بابَ الحريّة إلّا الأيدي الملطخة بالدم. وقد وصف الحرية بـ (الحمراء) كناية عن كونها لا تُنال إلا بالدم المسفوك. ويجوز أن

تمثال أحمد شوقي في روما

أُعِدّت الراحة الكبرى لمن تعبا

[127] معنى البيت وبعض مفرادته مستفادة من الآية الكريمة (116) من سورة التوبة:
{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون...} الآية.

[128] تحدث الدكتور صالح الأشتر عن أثر الأدب، والشّعر خاصّةً، في الشعوب فإنه «يهزّ وجدانها ويثير مشاعرها» ثم قال: «والحقّ أن صوت شوقي كان يرنّ في أجواء العالم العربي، ويهزّ ضمائر النائمين، ويفتح أعينهم على الخطر، ويرسم للأجيال طريق النصر الدامي». واستشهد بقول شوقي:

وللحرية الحمراء باب — بكل يدٍ مضرّجة يُدَقّ

- أندلسيات شوقي – د. صالح الأشتر.

يقال في معنى (الحمراء) إنها الشديدة، وذلك أنّ العرب وصفوا الشدّة دائماً بالحمرة.
ثم قال:

جزاكم ذو الجلال بني دمشقٍ ... وعزُّ الشرقِ أوّله دمشقُ
نصرتم يومَ محنته أخاكم ... وكلُّ أخٍ بنصرِ أخيه حَقُّ

يدعو لأهل دمشق أن يؤيدهم الله عزّ وجلّ، ويذكر أن دمشق في الحقيقة كانت أول مركز عزّ وسيادة للشرق؛ فإن الدولة الإسلامية الأولى – وهي دولة بني أمية – إنما اتخذت دمشق لها عاصمةً؛ ثم يقول لأهل دمشق: مَرْحى لكم! أنتم الذين نصرتم إخوانكم الدّروز يوم زحف إليهم الفرنسيس، فلم تَذَرُوهم مُنفردين، وشغلتم الفرنسيس من الوراء بثورة الغُوطة، ولا عَجب في ذلك، فإنّكم إنما نَصَرْتُم إخوانكم، وكلّ أخي حَقٍّ [جديرٌ] بِنَصْرِ أخيه.
ثم يقول:

وما كان الدّروزُ قَبيلَ شرّ ... وإنْ أُخذُوا بما لم يَسْتَحقّوا[١٢٩]
ولكنْ ذادَةٌ وقُراةُ ضَيْفٍ ... كينبوعِ الصَّفا خَشُنُوا ورَقّوا[١٣٠]
لهم جَبلٌ أشَمُّ له شعافٌ ... مَواردُ في السّحاب الجُوْنِ بُلْقُ[١٣١]
لكلِّ لبوءةٍ ولكل شبلٍ ... نضالٌ دون غايته ورشْقُ
كأنَّ من السّموءَلِ فيه شيئاً ... فكُلُّ جهاته شَرَفٌ وخُلْقُ[١٣٢]

قال:
وإنّ إخوانكم الدّروز هؤلاء لم يكونوا قبيلة شرّ، وإنهم لم يستحقّوا النّكال الذي أراد الفرنسيس إنزاله بهم. فالدّروز في الحقيقة قوم كرام، يقرون الضيف، ويمنعون حماهم بالسيف. وهم يجمعون بين الرقّة والخشونة، ففي حال السلم وعدم الاعتداء عليهم تراهم أرقّ الناس خَلْقاً، وأكثرهم أدباً، وأخفضهم جناحاً؛ فإذا اعتدى عليهم معتد انقلب كلّ منهم ليثاً عادياً بعد أن كان حملاً وديعاً، وما أشبههم بالينبوع المنفجر من الصخر في الجمع بين الرقّة والجُمود. ولهم جبل أشمّ له رؤوس كأنها موارد للسَّحاب، وهذه الرؤوس تجمع بين البَياض من صُخورها والسّواد من السُّحب التي تتراكم عليها، فلذلك هي بُلق؛ وإذا اعتدى معتد على الدروز وجدت كل امرأة منهم أسَدةً تناضل عن قومها، وكلّ شاب أسداً يُراشقُ عن قومه[١٣٣]، وكأنما هو السَّموءَل في وفائه وشرف نفسه وحميّة أنفه مع سعة حلمه ورقةَ طبعه، فهو من كل الجهات شرفٌ وحُسْنُ خُلق.

129(أُخِذَ بما لا يستحقُّ: ظُلِمَ.
130(ذادَةٌ: من ذادَهُ: دفعه، وطرده، قال الشاعر:

لا أذودُ الطّيرَ عن شجرٍ ... قد بلوتُ المُرَّ مِنْ ثَمَرِهْ

131(الشّعاف جمع الشعفة، وهي: من كل شيءٍ أعلاه. الجُون: جمع جَوْن وهو الأسود. وبَلَقَ: كان فيه سواد وبياض.
132(السَّموءَل بن عادياء، ضُرب به المثل في الوفاء، قالوا: «أوفى من السموءَل».
- مجمع الأمثال للميداني – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – 3: 446: أوفى من السموءَل.
133(يقال تراشق القوم: تناضلوا. (تقال في المناضلة بالسلاح واللسان). يريد الأمير: يدافع عن قومه.

شوقي وأولاده

(٩) ذكرى استقلال سورية وذكرى شهدائها

عالج شوقي ما ورد في عنوان القصيدة بتفصيل سَلْسَلَهُ على منهج خاصّ به في معالجة موضوعاته، وفيه ستّة مفاصل:

١. فالأول: كلام عامٌ في الحياة والموت وآراء للشاعر، وفيها ترشيح للمفصل الثاني:

٢. وفيه كلام على (أهل الواجب) كما سَمّاهم، الذين يجعلون الأمة والوطن في رأس اهتماماتهم.

٣. وقدّم العزاء لسورية بشهدائها.

٤. واستطرد بلطف، وحُسْن اتصال إلى رُسلٍ جاؤوا من سورية يحملون إليه رسالة مكتوبة بحبر غريب، يهنّؤونه بإمارة الشعر: طار لها فَرحاً وتقديراً.

٥. وانتقل نقلة سلسَةً من قصة أولئك الرُسل، وهم حُماة الدّيار إلى جهاد السّوريّين ضد الاستعمار، وناقش قضية السلم وشروط قبولها، ووازن بين أحوال الحرب وأحوال السّلم، وكيفية التعامل معها.

٦. ووقف – وأطال الوقوف – عند ذكرى استشهاد البطل المغوار الأبيّ: يوسف العظمة، ووفّاه حقه – من القصيدة – وكأنّه يجدّد رثاءه[١٣٤].

بين يدي القصيدة

هذه القصيدة أثرٌ أدبيّ بالغ الحُسن، جَيّاشُ العاطفة. يتابع فيه شوقي التفاته إلى دمشق والشّام، ويُتابع اهتمامه بقضايا سورية والسوريّين، وفيها ملمحان يلفتان النظر: أحدهما يخصُّ الشاعر موصولاً مع مجاهدي الشام، والثاني موصولٌ بموقفٍ من مواقف التّاريخ العربيّ السّوري عند هُجوم الإفرنسيّين على دمشق والشام هجوماً يُذكّر بـ (هولاكو) و(جنكيز خان) وعُتاة الحملة الإفرنجيّة (الصليبية). فقد رجع شوقي بالذاكرة – والمناسبة مستمرّةٌ – إلى يوسف العظمة الذي سجّل اسمه في سجل الخُلود، ودخل في صحيفة الشهداء.

١- بعد «تنصيب» شوقي أميراً للشّعراء، وفي ليلة ساهرة في داره بالقاهرة، تسلّم رسالة كان

[134] ولد يوسف العظمة في دمشق 1884، وفيها تعلّم؛ ومن الآستانة تخرج ضابطاً عسكريّاً، وتدرّب في ألمانيا أيضاً، وتقلّب، على صغر سنّه في مناصب عسكرية ذات أهميّة في الجيش العثماني، وتولّى رئاسة أركان الحرب العامّة برتبة قائم مقام في سورية. وحين أُعلن الاستقلال عيّنه الملك فيصل في عدد من المهامّ العسكرية والسياسيّة، حتى صار وزيراً للحربية (الدفاع) سنة 1920.

ونصح العظمة الملك فيصل بعدم حلّ الجيش، كما طلب غورو الفرنسي. ثم ظهرت نيّات فرنسا المبيّتة، وهجم الفرنسيون بقوًى متعدّدة كثيرة. ولم يكن ليوسف العظمة وهو مسؤول الدفاع عن الوطن أن يشاهد دخول العدو الفرنسي... ولهذا قام بما يجب على المحامي عن الأهل والبلاد القيامُ به ولو كان في ذلك سقوطه شهيداً في 24 تموز 1920. فراح شهيداً، وصار مثالاً للشام في الفداء والإباء، وقد قالت العرب:

ومبلغُ نفسٍ عُذْرَها مثل مُنْجِحِ

لها – كما أرّخ حسين شوقي – «وقعٌ عظيم في نفسه، إذ هي تحيّةٌ من زعماء الثورة السّورية، كُتبت بميدان القتال، وقد وقّعها هؤلاء الأبطال واحداً واحداً» قال حسين شوقي: «وقد أشار أبي إليها في قصيدته في ذكرى شهداء استقلال سورية، إذ قال:

ذكرتُ المهرجانَ وقد تجلّى ووفدَ المَشرقين، وقد توالى

وداري بين أعراسِ القوافي وقد جُليتْ سماءً لا تُعالى

تسَلّل في الظّلام إليّ نِضْوٌ وبلّغني التحيَّة والسّؤالا

إلى آخر الأبيات الخاصة بالمناسبة (الأبيات من ٣٩-٥٤)[١٣٥].

وكان توقيع كل منهم بعد كتابة اسمه: بقطرات استمدّها من دَمِه، محبةً في شوقي وتقديراً لنصرته المجاهدين والقضية السورية.

٢- وقعت بلاد الشام (الطبيعيّة) والعراق بين أيدي الإنجليز والفرنسيين، واختلفا على القسمة، إلى أن استقرت الحال الاستعمارية على أن تكون سورية (ومنها لبنان) لفرنسة؛ وفلسطين (ومعها الأردن) والعراق للإنجليز.

وبقي من الدولة العربية الكبرى التي وعد بها الإنجليز الشريف حسين سورية وحدها، وتركوها للملك فيصل بن الحسين، وأعلن يوم ٨ آذار عيداً لقيام الدّولة العربية، ولكن الأمر لم يستقر على هذه الحال.

ونقرأ في أحد كتب تاريخ هذه الفترة[١٣٦]: أن «الحكومة الفرنسية لم تكن على استعداد للقبول بأيّة حكومة قوميّة في دمشق، وتُرِك فيصل يقع في أحضان الوطنيّين المتطرفين لتبرّر فرنسا تدخلَها في سورية».

– وتحرّكت فرنسا بتفويض أوربيّ[١٣٧] نحو دمشق «فأُجريت الاستعدادات من أجل الاحتلال الكامل لسورية في أقرب تاريخ ممكن».

– «وتوصّل ملیران رئيس الوزراء الذي خلف (كليمَنْصُو) والجنرال غُورو، ومستشارو ملیران السياسيون إلى قرار نهائي بشأن مصير الحكومة العربية المتمثّل في التّفكيك»[١٣٨].

– وفي أيار ١٩٢٠ أدخل الفرنسيون عُملة (سوريّة)[١٣٩] صادرة عن بنك سورية الذي يملكه الفرنسيون وربطوها بالفرنك الفرنسي.

– وكانت فرنسا في أوائل تشرين ١٩١٩ عيّنت هنري غورو مندوباً سامياً لفرنسة في سورية، وقائداً لجَيْش المشرق، وتعيين هذا «الكاثوليكي الورع أثلج صدرَ الحزب الاستعماري في فرنسا، وكان يدعو علناً إلى وجود عسكري في الداخل السُّوري يدافع عن الحَماية الدينيّة الفرنسية في سورية...»[١٤٠].

وذكر المؤرّخون الدّوافع الكثيرة لدى فرنسا لاحتلال سورية من سياسية ودينية واقتصادية.

---

135) أبي شوقي: 145.
136) سوريا والانتداب الفرنسي – فيليب خوري: 63.
137) بعد مؤتمر (سان ريمو – نيسان 1920) (سوريا والانتداب الفرنسي – فيليب خوري: 63).
138) سوريا والانتداب الفرنسي – فيليب خوري: 63.
139) النقد الورقي.
140) سورية والانتداب الفرنسي: 61.

وبعيداً عن اتفاقية سايكس – بيكو، وعن مؤتمرات أوربة أعلن المؤتمر السوري العام الاستقلال في ٧ آذار ١٩٢٠، وتألفت الوزارة برئاسة رضا الركابي، الذي لقب أيضاً بالحاكم العسكري العامّ، وأقيمت حكومةٌ عربيّةٌ في لبنان برئاسة عمر الداعوق.

– حين كان (غورو) يراسل الملك فيصل في شروط اشترطها لعدم دخول سورية (الإنذار المؤرخ في ١٠ تموز ١٩٢٠) كان يفعَل ذلك كسباً للوقت، وإخفاءً لنيّاته المبيّتة، واستجاب فيصل لمحتويات الإنذار[١٤١] ومنها حلّ الجيش. وكان رأي وزير الحربية يوسف العظمة ألّا يحلّ الجيش، وتوالت الأحداث، وزحف (غورو) على سورية.

– وكان تاريخ إنذار غورو ١٤ تموز، وكان اجتياحُه البقاع في ٢١ تموز ووصوله إلى ميسلون في ٢٤ تموز.

– اتجه يوسف العظمة إلى ميسلون، ورتّب أُمور المعركة بما يناسب الجغرافية، والقوات الباقية معه من جيش منحلّ، ومتطوعة غير مدربة وأسلحة قليلة. ونصَب ألغاماً في طريق دبابات الفرنسيّين لتعطب ويَتراكب بعضُها إلى بعض ليستفيدَ جيشُه من هذه البلبلة، لكنْ جاء من قطع أسلاك الألغام (عصابة من بيروت حسب رواية عبد العزيز العظمة)[١٤٢] وظهر في الجيش القليل العدد أصلاً مَنْ جاء متلصّصاً أو متعاوناً[١٤٣]، وقاوم العظمة مع البقية الباقية من جنوده الذين ثبتوا – بعد فرار بعضهم – وأصابته شظيةٌ من قذيفة من مدفع معاد، وسقط شهيداً.

– وكان الجيش الغازي مُزَوّداً بالمدافع والدّبابات والطائرات، وبقوّات كبيرة منَ السّنغال (وكانت فرنسا تحتل بلادهم) ومن غيرهم أيضاً (كالجزائريّين)[١٤٤].

وقد أشار شوقي في قصيدته إلى جوانب هذه المعركة غير المتكافئة. ورثى يوسف العظمة، وذكر أثر استشهاده في استنهاض الهمم للثورة على الفرنسيّين[١٤٥].

– وكنتُ في ذكرى ٢٤ تموز كتبتُ مقالة نشرت في جريدة (الوطن) الدمشقية بعنوان «قائد برتبة مقاوم» أشرتُ فيها إلى روح التضحية من هذا البطل، وروح الإباء من عربيّ أصيل، وخصلة الشجاعة، وفيها:

«وفي ٢٤ تموز ١٩٢٠ خرج القائد مع القلة من الضباط والجنود ومع مَنْ جاء من المتطوّعين. كانوا جميعاً مثل وزير الدفاع (وزير الحربية) القائد يوسف العظمة برتبة مقاوم، وحظي بعضهم أيضاً برتبة شهيد»[١٤٦].

– و(ميسلون) في المعجم الجغرافي[١٤٧] مزرعة تتبع ناحية الدّيماس، وعُرفت عند الفتح الإسلامي: باسم عيد الشهداء؛ لأن جماعة قد استشهدوا فيها عند فتح مدينة دَمشق؛ وتقع في مُنخفض يمتدّ بشكل متطاول بين جبل سعيدة في الشمال، والحصحاص في الجنوب، وهي في النهاية الجنوبية لسلسلة جبال لبنان الشرقية.

---

141) أحداث الثورة العربية – ميسلون نهاية عهد – صبحي العمر (ص: 146).

142) انظر تفصيلًا في كتاب: مرآة الشام: تاريخ دمشق وأهلها – عبد العزيز العظمة – (فقرة كارثة ميسلون 485-492).

143) مرآة الشام: 488.

144) سورية والانتداب الفرنسي – فيليب خوري: 128.

145) وقد عالج شوقي الفكرة في قصيدته عن المجاهد الشهيد عمر المختار في الديوان (2: 344- 347) ومطلع قصيدته في عمر المختار:

ركزوا رفاتك في الرمال لواءَ ... يستنهض الوادي صباحَ مساءَ

146) الوطن: 2009/7/23.

147) المعجم الجغرافي 5: 384.

وذاعت شهرة ميسلون بسبب المعركة التي كانت فيها، واستشهد فيها البطل المجاهد يوسف العظمة.

قال أحمد شوقي[148]، تحت عنوان:

(ذكرى استقلال سورية وذكرى شهدائها)

«حياةٌ» ما نريدُ لها زِيالا ... و«دنيا» لا نَودُّ لها انتقالا

و«عيشٌ» في أُصول الموت سُمٌّ ... عُصارَتُهُ، وإن بسَط الظّلالا

وأيامٌ تطيرُ بنا سَحاباً ... وإن خيلت تدبُّ بنا نمالا[149]

نُريها في الضَّمير هوًى وحُبّاً ... ونُسْمعُها التَّبَرُّمَ والمَلالا!

قِصارٌ حين نُجْري اللّهوَ فيها ... طِوالٌ حينَ نقطَعُها فعالا[150]

ولم تَضِق الحَياةُ بنا ولكنْ ... زِحامُ السُّوءِ ضَيَّقَها مَجالا!

ولم تقتُلْ براحَتها بَنيها ... ولكنْ سابَقُوا الموتَ اقتتالا[151]

ولو زادَ الحياةَ الناسُ سَعْياً ... وإخلاصاً لزادتهمْ جَمالا

كأنّ اللّه إذْ قسمَ المعالي ... لأهل الواجبِ ادَّخَر الكَمالا[152]

ترى جدّاً ولست ترى عليهم ... ولوعاً بالصّغائرِ واشتغالا

وليسوا أرْغَدَ الأحياءِ عيشاً ... ولكنْ: أنْعمُ الأحياء بالا

إذا فَعلُوا فخيرُ الناس فعلاً ... وإن قالوا فأكرمهمْ مَقالا

وإن سألتْهُمُ الأوطانُ أعْطَوْا ... دماً حُرّاً، وأبناءً، ومالا

وجاء هذا البيت (وإن سألتهم الأوطان) انتقالاً سلساً بين الأبيات الأولى السابقة، وقد طالت (نسبيّاً) ودخل منها – وهي تقدمة مناسبة – إلى تضحية ثوار سورية ومجاهديها ضد المستعمر الفرنسي.

– وخاطب أهل سورية ذاكراً شجاعتهم وفداءهم، وشاركهم ما هم فيه:

---

148) ديوان شوقي 1: 364.

149) الأيام تمر بسرعة شديدة (ضرب مثلًا من سير السحاب) وإن وقع الظن بأنها بطيئة (ضرب مثلًا من سير النمل).

150) الفَعال: العمل الحميد.

151) قال المتنبي في هذا المعنى: (التبيان في شرح الديوان – العكبري – 4: 24):

كلما أنبت الزمانُ قناةً ... ركّب المرءُ في القناة سنانا

152) أهل الواجب كناية عن الذين يؤدون الواجب: نحو الوطن، ونحو الأهل، ونحو الضيوف، ونحو سائر النّاس. وقوله (أهل الواجب) مستفاد من أُسلوب شعبي ولغة صحيحة.

بني البلد الشقيق عزاء جارٍ ... أهابَ بدَمْعه شَجَنٌ فسالا[153]

قضى بالأمسِ للأبطالِ حقّاً ... وأضحى اليومَ للشُّهداء غالى[154]

يُعَظِّمُ كلَّ جهدٍ عبقريٍّ ... أكان السِّلمَ أم كانَ القتالا[155]

وما زلنا إذا دهت الرّزايا ... كأرحمِ ما يكونُ البيتُ آلا[156]

وقد أنسى الإساءة من حَسُودٍ ... ولا أنسى الصَّنيعة والفَعالا[157]

أسبغ شوقي على المجاهدين ما يليقُ بهم من الأوصاف، وعبارات التكريم، وذكر رثاءه للشهداء، وتبجيله للأبطال المجاهدين.

– ثم التفت إلى وفد المجاهدين، ورسالتهم النفيسة:

ذكرتُ المهرجانَ وقد تجلّى ... ووفْدَ المَشرقين، وقد توالى[158]

وداري بين أعراسِ القوافي ... وقد جُليتْ سماءً لا تُعالى

تسلّل في الزّحامِ إليّ نضْوٌ ... منَ الأحرارِ تحسَبُه خَيالا![159]

رسول الصّابرين ألمَّ وَهْناً ... وبلّغني التحيّة والسُّؤالا[160]

دنا منّي فناوَلني كتاباً ... أحسَّتْ راحتايَ له جَلالا[161]

وجَدْتُ دمَ الأسودِ عليه مسكاً ... وكانَ الأصلُ في المسكِ الغَزالا[162]

كأنّ أسامِيَ الأبطالِ فيهِ ... حواميمٌ على رقٍّ تتالى[163]

153(أهاب به: دعاه. والشجن: الحُزن.

154(أثنى على الأبطال المجاهدين، ثم عظّم شأن الشهداء، ووفاهم حقهم.

155(يُثني على رجال الثورة السياسيين (يفاوضون لإخراج المستعمر سلماً) وعلى مَنْ حمل السلاح منهم، فكلاهما يخدم الوطن.

156(الرّزايا جمع الرزية: المصيبة والنائبة. و: دهت: أصابت.

157(الصنيعة: المعروف. والفَعال: العمل الحميد.

158(مهرجان تنصيب شوقي أميراً للشعراء. وتوالى (أعضاء الوفد): تتابع.

159(نِضْو: نحيل (أنحله طولُ المُجاهدة). وقوله: تحسبه خيالًا أي من نُحوله.

- وقد بالغ المتنبي حين ذكر نحوله:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل ... لولا مخاطبتي إياك لم تَرني!

(التبيان 4: 186 – وفيه: قد بلغ في النحول الغاية.. وأن عائده (زائره في المرض) يستدل عليه بصوته، لا يراه لنحوله).

160(الوهن: منتصف الليل، أو بعده بقليل. بلّغه التحية، والسؤال عن حاله (.. كيف الصحة؟ كما يقول أهل الشام).

161(الكتاب: الرسالة.

162(في المعجم الوسيط: المسك: نوع من الطِّيب يُتَّخَذُ من نوع من الغزلان. انتهى.

ولقّب المجاهدين بالأسود. وذكر المسك لأنهم وقَّعوا بدمائهم، فكأن دماءهم مسكٌ (كالذي يُستخرج من دم الغزلان).

- وفي شعر أبي الطيب (التّبيان 3: 20):

رأيتك في الذين أرى ملوكاً ... كأنّك مستقيمٌ في مُحال

فإنّ تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم ... فإنّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

163(تواقيعهم – بعد أسمائهم – كأنّها حروف مختصرة متواصلة كحروف (حم). والرقّ: جلد رقيقٌ يُكتب عليه. وتتالى: تتوالى (وقع بعضهم في إثر بعض).

رواةُ قصائدي قد رتّلوها ... وغَنّوها الأسنّةَ والنِّصالا[١٦٤]

إذا ركزوا القَنا التفتُوا إليها ... فكانت في الخيام لهمْ نقالا[١٦٥]

بني سُورية التَئمُوا كيوم ... خَرجْتُم تطلبونَ به النّزالا[١٦٦]

سَلُوا الحريّةَ الزّهراء عَنّا ... وعنكم هل أذاقَتْنا الوِصالا؟[١٦٧]

وهل نلنا كلانا اليوم إلّا ... عراقيبَ المواعد والمِطالا[١٦٨]

عرفتم مَهْرَها فَمَهَرْتُموها ... دماً صَبغ السَّباسبَ والدِّعالا[١٦٩]

وقُمْتُم دونَها حتّى خضَبْتُم ... هوادجَها الشّريفةَ والحِجالا[١٧٠]

دَعُوا في الناس مَفْتُوناً جَباناً ... يقولُ: «الحربُ قد كانت وَبالا»![١٧١]

أيطلبُ حقَّهم بالرُّوح قومٌ ... فَنَسْمَعَ قائلاً: «ركبوا الضّلالا»!

وكونُوا حائطاً لا صَدْعَ فيه ... وصَفّاً لا يُرَفَّعُ بالكُسالى

وعيشوا في ظلال السّلم كدّاً ... فليسَ السِّلمُ عجزاً واتّكالا[١٧٢]

ولكنْ أبعدُ اليومين مَرْمًى ... وخيرُهما لكم نُصحاً، وآلا

وليس الحربُ مركبَ كلّ يوم ... ولا الدَّمُ كلَّ آونة حَلالا

سأذكرُ ما حَييتُ جدارَ قَبْرٍ ... بظاهر جِلّقٍ ركبَ الرِّمالا

مقيمٌ ما أقامتْ مَيْسَلونٌ ... يذكِّرُ مصرعِ الأُسْدِ الشِّبالا[١٧٣]

لقد أوحى إليَّ بما شَجاني ... كما تُوحي القبورُ إلى الثّكالى[١٧٤]

---

164) رتّلوها: أنشدوها. والأسنة جمع سنان (رمح)، والنصال جمع النَّصل: حديدة الرمح والسهم والسكّين.

165) كانت قصائده – وهم في مرابضهم العسكرية إمتاعاً وغذاء نفس (كما يكون النُّقل عند السامرين والساهرين) نقال جمع نقل.

166) طلب إلى السّوريين أن يلتئم شملهم، ويكونوا على قلب رجل واحد، كما كانوا في عزّ الثورة والجهاد.

167) الحرية الزّهراء (البيضاء) في مُقابل (الحرية الحمراء). انتقد المفاوضات غير المُجدية في مصر مع الاستعمار البريطاني، وفي سورية مع الفرنسي؛ لأن الحرية لا تُنال إلا بالجهاد (ولو كان دامياً). وهو يُشير إلى ما قاله في (الحرية الحمراء في القصيدة السابقة).
- والوصال هنا: بلوغ الحرية، وفكّ قيود الاستعمار، استعاره من معاني الغزل.

168) مواعيد عرقوب مشهورة تقال فيما لا يَقَعُ الوفاء به. والمطال: المماطلة.

169) السباسب جمع السَّبسب: المفازة (الصحراء الواسعة). الدِّعال جمع دَعل: الشجر الكثيف المُلتفّ.

170) الهوادج جمع الهودج: مَحْمَل له قبّة يُهيّأ للمرأة، يوضع على الدابّة، تكونُ فيه عند الانتقال والسفر. ومنه: هودج العروس. والحجال جمع الحَجلة: قبة تُزَيّن للعروس.

171) الوبال: الفساد.

172) يقول: سلم القوة، الذي تحققت فيه المطالب والمآرب.

173) الأُسْد جمع أسد. ويصح أن تُقرأ الأسَد بالإفراد، ويكون المقصود يوسف العظمة، وإلا فالكلام عام في شهداء ميسلون.

174) شجاه: أحزنه.

تَغيَّبَ عَظْمَةُ العَظمات فيه ... وأوّلُ سيّدٍ لقيَ النّبالا
كأنّ بُناتَهُ رَفَعُوا مناراً ... من الإخلاص أو نَصَبُوا مثالا[١٧٥]
سِراج الحقّ في ثبج الصَّحارى ... تهابُ العاصفاتُ له ذُبالا[١٧٦]
ترى نور العقيدة في ثَراهُ ... وتنشَقُ من جَوانبه الجَلالا[١٧٧]
مشى ومشت فيالقُ من فرنسا ... تَجُرُّ مَطارفَ الظَّفر اختيالا[١٧٨]
ملأنَ الجوَّ أسلحةً خفافاً ... ووجْهَ الأرض أسلحةً ثقالا[١٧٩]
وأرسلن الرياحَ عليه ناراً ... فما حَفَل الجنوبَ ولا الشّمالا[١٨٠]
سلوهُ هل ترجّلَ في هَبُوبٍ ... من النّيران أرْجَلت الجبالا؟[١٨١]
أقام نَهارَه يَرْمي ويُرْمَى ... فلمّا زالَ قُرْصُ الشّمسِ زالا[١٨٢]
وطاحَ: تَرى به قَيْدَ المنايا ... ولستَ ترى الشَّكيم ولا الشّكالا[١٨٣]
فكُفّن بالصَّوارم والعوالي ... وغُيّبَ حيث جال وحيثُ صالا[١٨٤]
إذا مَرّتْ به الأجيالُ تَتْرى ... سمعتَ لها أزيزاً وابتهالا[١٨٥]
تعلّق في ضمائرهم صليباً ... وحَلّق في سرائرهم هِلالا

175) بناة ضريح يوسف العظمة. والمثال: التمثال.
176) الذُّبالة: الفتيلة التي تُوضع في السّراج (المعمر بالزيت) وتوقد لتضيء.
والصورة في البيت دقيقة معبّرة، فالضريح في الصحراء كفتيلة السّراج المضيئة لكنّها لتمكنها وقوتها لا تستطيع الرياح العاصفة إطفاءها. أي: (ذكرى يوسف العظمة خالدة).
177) قوله: «وتنشق من جَوانبه الجلالا» فيه استعارة غريبة.
178) فيالق جمع فيلق: الفرقة من الجيش. والمَطارف جمع المُطْرَف: كساء من الخزّ (الحرير) ذو ألوان. يتخذه الرؤساء والكبراء، وفيه علامة الكبرياء.
179) الخفاف هنا الطائرات، والثقال: المدافع والدبّابات.
180)
181) هَبُوب مبالغة اسم فاعل من هَبّ كما نقول: قَتُول وظَلوم.
بقي يوسف العظمة ثابتاً في المعركة (كالفارس على فرسه لم يُنزله عنه شدّة المعركة)، معركةٍ لو كانت الجبال فرساناً وخاضتها لترجّلت (نزلت عن الخيل لشدة وطأتها).
182) بقي يوسف العظمة يقاتل، ويتلقّى الضَّربات، حتى أصابته الشظية القاتلة (الموصلة إلى الشهادة) حين انتصف النّهار (وقت الزَّوال) فـ (زال) الأولى من وقت الزوال، وزال الثانية بمعنى: مات.
- وفي: (سورية والانتداب الفرنسي) أن المعركة بدأت وانتهت «في ساعات قليلة»، وهذا مقصد شوقي من استشهاد العظمة عند الزوال.
- (سورية والانتداب الفرنسي – فيليب خوري – ص: 128).
183) طاح: مات (سقط شهيداً).
- الشكيم جمع الشكيمة: الحديدة من اللّجام التي تكون في فم الفَرس، والشكال: القيد. أخذ شوقي ذلك من صفة الجَواد الأصيل.
184) الصَّوارم جمع صارم من صفاتِ السَّيف، والعوالي جمع العالية، وهي الرُّمح. وجال من الجولة، وصال من الصّولة في المعركة.
وفي المعجم الجغرافي (5: 384): «ودُفِنَ يوسف العظمة مكان استشهاده ولا يزال ضريحه إلى الآن [في ميسلون]».
185) تترى: متوالية (تمرّ بضريحه جيلًا بعد جيل) ترفع أصواتها بالدعاء له، والابتهال إلى الله تعالى برفع درجته بين الصدّيقين والشهداء.

(١٠) فوزي الغزّي

- كان في جملة ملامح مَيْل شوقي إلى دمشق والشّام وانتمائه إليها انتباهه المتواصل – منذ زيارته إليها (آب ١٩٢٥) – إلى أحداثها وإلى مجريات الحياة فيها. وتأكدّت صداقاته وصلاته من دون انقطاع، ابتداءً من أحد رؤسائها محمد علي العابد، ووصولاً إلى محبّيه ومنشدي شَعره من كبارهم وصغارهم.

وقصيدته في رثاء فوزي الغزي واحدةٌ من فَرائده الشّامية التي طوّق بها أعناق أهل دمشق والشام: تخليداً ومحبّة وانتماء...

لقد كانت لقاءاته بالغَزّي قليلة ولكنّها مؤثّرة، وعميقة، وأظهرت هذه القصيدة عمق معرفته بالرجل، ومكانته، وأثره الوطنيّ والعلمي والإنساني، وانتبه شوقي إلى عظيم أثر وفاة الغزي على الحركة الوطنية والوثبة الفكرية والثقافية والحضارية في سورية الفتية.

ولكي تكون القصيدة شاملةً عاد إلى مَنهجه في قصائده الشاميّات، وما يلحَق بها، من العَطف على قضايا سورية، والنصح لرجالها من أهل السياسة والجهاد خاصّةً؛ وعَدَّ ذلك واجباً وطنيّاً ودينيّاً في وقت واحد. وعدّ شعره جانباً من جَوانب رسالة الشاعر المحبّ لأهله ولوطنه. وقد قال في دمشقيّته الأولى[١٨٦]:

نصيحةٌ ملؤها الإخلاص صادقةٌ ... والنّصحُ خالصهُ دينٌ وإيمانُ

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفةً ... أو حكمةً فهو تقطيعٌ وأوزانُ

- في باب الرثاء من طبعة الدكتور أحمد الحوفي لديوان شوقي قصيدة بعنوان فوزي الغزي، نُشرت في جريدة (الأهرام) المصرية في ٢٢ حزيران (يونيه) ١٩٣٠، وألقيت في حفلِ تأبينه في دمشق ١٩٣٠.

وكان شوقي قد عرف فوزي الغزي حين زار دمشق (آب ١٩٢٥) وكان الغزي من المحتفلين بشوقي، فقد كان من أعيان دمشق، ومن رجال العلم والقانون، ومن زعماء الثورة السوريّة. ولا شكّ في أن الرابطة الحقوقية بين الرّجلين، قد أسهمت في متانة الصلة، على قصر مدّة اللقاءات بينهما، وقد قال شوقي في القصيدة في هذا المعنى:

أبكي ليالينا القصارَ وصُحبةً ... أخذتْ مَخيلَتُها تَجيشُ وتبْرُقُ

وتدخل هذه القصيدة في دمشقيات شوقي وشامياته، فهي في شخصية دمشقية وطنيّة متميّزة، وفي القصيدة كلام موجّه إلى أهل الشام ليتوحّدوا ولا يتفرّقوا. وهذا ملمَحٌ لم ينسَ شوقي ترداده في قصائده الشاميات جميعا.

وكانت وفاةُ (الغزّي) المأساويّة، واعتباطُه شاباً، أباً لثلاثة أطفال صغار، عاملاً إضافيّاً حَرَّكَ مشاعرَ الشّاعر، وألهبَ عواطفه، واستحقّ رثاءه، وتقديم العزاء لأهله، ولأهل دمشق والشام عامّة.

- المرثيّ بهذه القصيدة علم من أعلام دمشق في العلم والفكر والثقافة والسياسة، والاجتماع مولده ووفاته في دمشق (١٨٨٧ - ١٩٢٩).

186) ديوان شوقي 1: 162.

شارع أحمد شوقي في دمشق في حي أبو رمانة

«ينتمي فوزي الغزي إلى أسرة اشتهرت بالفقه والعلوم الإسلامية، وفدت من فلسطين في القرن الخامس عشر (الميلادي) وسرعان ما استحوذت على منصب مفتي الشافعية، وظلّ في يدها إلى القرن العشرين. سكنوا حي العمارة، وأداروا أوقافاً خيرية، وكانت لهم أملاكٌ واسعةٌ في دوما[187]، وتولى بعضهم مناصب مدنية، وخرج منهم قضاةٌ كبار. تخرّج في المدرسة الملكية العليا في الآستانة، وخدم في الجيش العثمانيّ الخدمة الإلزامية، وعاد إلى دمشق مع دخول الجيش العربي ١٩١٨.

وحين نشأت تجمعات وأحزاب في سورية في عهد الانتداب كان الغزي مع الفئات المعارضة لفرنسة، الآخذة بأسباب الكفاح المسلح ما دامت المفاوضات غير مجدية. ولما عاد عبد الرحمن الشهبندر من منفاه ١٩٢٤ كان الغزي من فريقه، ولقي من فرنسا الاضطهاد والحبس والتغريب، وكان من أعضاء حزب الشعب الذي أنشأه الشهبندر، وكان أمين سرّه فارس الخوري. وكان من جملة سجناء (أرواد) سنة ١٩٢٥. واختير الغزي ليكون مع الوفد السوري المفاوض للانتداب طلباً للاستقلال. ثم كان الغزي مع الذين نفتهم فرنسا إلى الحسكة في حزيران ١٩٢٦، ثم نُقل إلى لبنان منفياً أيضاً (في قرية من قرى قضاء البترون). وفي شباط ١٩٢٨ صدر عفو شمل الغزي.

وعُيّن الغزي عضواً في لجنة صياغة الدستور، وبرز في هذه المجموعة هو وفايز الخوري (وكانا محاميين). وحين تدخلت فرنسا لتعديل بعض مواد الدستور السيادية رفض الغزي، وبرز مناضلاً عن الدستور، وحقوق الشعب، واشتهرت خطبه ومقالاته، وطارت له شهرة واسعة، ونال لقب (أبو الدستور).

وانطفأت هذه الشعلة بجريمة اتهمت فيها زوجته، وابن أخ له، بدسّ السمّ له في الدّواء.

وللغزي: حقوق الدول العامة في جزأين (ط). وقد درّسَ الحقوق في جامعة دمشق، وكان أستاذاً قديراً[188].

– ربط شوقي في القصيدة بين رثاء فوزي الغزّي، وبيان خصاله، وأثر وفاته في سورية عامة وفي الحركة الوطنية، والوثبة العلمية في دمشق؛ وبين حال دمشق والشام في مقاومة الاستعمار الفرنسي بالمفاوضات (وإن كان الفرنسيون يختلون ويخدعون) والمقاومة المتواصلة لإزعاج العدو وإخراجه، طلباً للاستقلال.

فوفاة الغزي كانت جرحاً فوق جرح الوطن (الأبيات ١–٧)، والغزي كان ممن لفت نظر شوقي وعرفه وصادقه (١١– ١٦)، وحادثة وفاته كانت سمّاً له وكالسّم في جنب الوطن (١٧– ٢٠)، ودمشق حزينة – ويحق لها – على وفاة الغزي المأساوية (٢١– ٢٨)، والقصيدة مناسبة للبكاء

187) (دوما) مركز قضاء، وأكبر مدن الغُوطة الشرقية، تقع إلى الشمال من دمشق على بعد نحو 12كم، واشتهرت بزراعتها وأشجارها المثمرة.
188) رواية اسمها سورية 1: 493-505.

على الغزي وتعداد خصاله ومواهبه، وأثره السياسي والوطني في الشام (ذكر أوّلاً أسرة الغزي ٢٩- ٣٢) واسترسل مصوراً فداحة خسارته:

يا مأتماً من عبد شمسٍ مثلهُ للشمس يُصنَعُ في الممات ويُنسقُ

(القصيدة ٣٣-٤٢)، وختم بالنّصيحة، التي يقدّمها لدمشق وللشام عن محبّة وإخلاص (٤٣-٤٥).

قصيدة فوزي الغزي[١٨٩]

بدأ بمواساة دمشق التي لم تكد تخرج من نكبة فرنسا حتى دخلت في جو الحزن لجرح آخر، هو وفاة ابن دمشق العربيّ الوطني القانوني المعلم المجاهد، ذي المزايا. وفي أخبار وفاته أن دمشق «يوم السبت ٥ تمّوز أغلقت أسواقها حداداً، وخرجت الحشود في موكب مهيب لوداع الشاب المحامي والسياسي الوطني فوزي الغزي، وخلافاً للعادة اشتركت النساء إلى جانب الرجال في التشييع، وزحفت الوفود من جميع أنحاء سورية ولبنان كما مشى في جنازته العلماء والوجهاء والجماهير الشعبية الفقيرة بمظاهرة عظمى تأسفاً على رجل قلّ نظيره بين الرجال حسب شهادات رفاقه...»[١٩٠].

جُرحٌ على جُرحٍ حنانَك جلَّقُ حُمِّلْتِ ما يوهي الجبالَ ويُرْهِقُ[١٩١]

صبراً لباةَ الشرقِ، كلّ مصيبةٍ تَبْلى على الصّبْرِ الجميل وتَخْلَقُ[١٩٢]

أنسيت نار الباطشينَ وهزّةً عَرت الزمانَ كأنّ روما تُحْرَقُ[١٩٣]

رعْناءُ أرسلها ودسَّ شُواظَها في حُجرة التاريخ أرْعنُ أحمقُ[١٩٤]

فَمشت تُحَطِّم باليمينِ ذخيرةً وتَلُصُّ أُخرى بالشَّمالِ وتَسْرِقُ![١٩٥]

جُنّتْ فَضَعضَعها وراضَ جماحَها من نَشْئَكَ الحُمْسِ الجنُونُ المُطْبِقُ[١٩٦]

يا واضع الدُّستور أمسِ كخُلقه ما فيه من عوَجٍ ولا هو ضَيِّقُ[١٩٧]

نظمٌ من الشورى وحكمٌ راشدٌ أدبُ الحضارة فيهما والمَنْطِقُ

لا تُخْشَ ممّا ألحقوا بكتابه يبقى الكتابُ وليس يبقى الملحقُ![١٩٨]

189) ديوان شوقي 2: 492-495.
190) رواية اسمها سورية 1: 500.
191) حنانك: رحمتك، ويقال: حنانيك: رحمة منك موصولة برحمة. يوهي: يُضعف.
192) لباة الشرق كناية مخترعة من شوقي عن دمشق، وهي الأسدة. وتَخْلَقُ: تبلى.
193) الباطشون: الفرنسيون مستعمرو سورية. شبه حريق دمشق بحريق روما في أثره ومصيبته. وعراه: ألمّ به، وأصابه.
194) رعناء (مؤنث أرعن): هوجاء. الشواظ: اللّهب (لا دخان له).
195) لصّ الشيء: سرقه.
196) ضعضعها: أضعفها. راضَ (من التّرويض: التذليل كترويض الفرس الجموح). جماح: يقال جمح الرجل: ركب هواه فلا يمكن ردُّه. والحمس جمع الأحمس: الصلب المتشدّد. والمطبق من الجنون: الذي يغشى صاحبه ويعمّه، ويقال: جهل مُطْبِق أي: شامل.
197) ونال فوزي الغزي لقب: «أبو الدّستور».
198) يشير شوقي إلى رغبة فرنسا في تعديل ستّ موادّ، ورفض الغزي الاستجابة لهم. (هناك تفصيل في: رواية اسمها سورية 1: 498-499).

مَيْتَ الجلال من القوافي زفرةٌ تجري ومنها عبرةٌ تترقرقُ[١٩٩]

ولقد بعثتهما إليكَ قصيدةً أفأنْتَ مُنتظرٌ كعهدك شيّقُ[٢٠٠]

أبكي ليالينا القصار وصُحبَةً أخذت مَخيلَتُها تَجيشُ وتَبْرُقُ[٢٠١]

لا أذكرُ الدّنيا إليك فربّما كَرِهَ الحديثُ عن الأُجاج المُغْرَقُ[٢٠٢]

طُبعت من السُّمّ الحياةُ: طعامُها وشرابُها وهَواؤها المُتَنَشَّقُ

– في جملة مواساة شوقي في وفاة الغزي أنّ الحياة تحملُ في طيّاتها ما يسرّ، وتحمل أيضاً ما يصعبُ، أو يُحزن. وأورد كلمة (السّم) المناسبة لحال الوفاة المأساويّة، في معرض تلك المعاني، وأراد بالسّم هنا كل ما يعترض من آلام وأحداث محزنة (على سبيل المجاز).

والنّاسُ بين بَطيئها وذُعافها لا يعلمونَ بأيِّ سُمَّيها سُقُوا![٢٠٣]

كنّى الشاعر عن الموت بعد عمر طويل بالسم البطيء، والموت اعتباطاً في الشباب (أو الكهولة) باسم الذّعاف: السريع التأثير.

أمّا الوَليُّ فقد سَقاكَ بسُمّه ما ليس يَسْقيك العَدُوُّ الأزرقُ![٢٠٤]

طلبوكَ والأجلُ الوشيك يَحُثّهم ولكلّ نفسٍ مُدّةٌ لا تُسْبَقُ[٢٠٥]

لمّا أعانَ الموتُ كيدَ حبالهم عَلقتْ، وأسبابُ المنيَّة تَعْلَقُ[٢٠٦]

طرقت مهادَكَ حيّةٌ بشريّةٌ كفرت بما تنتابُ منهُ وتَطْرُقُ[٢٠٧]

وأشار إلى من دسّ السّم في دواء الغزي (أو من دسّت) بكلمة (الوليّ) في لفتة لغوية بارعة، فإنه أشار إلى القاتل، وحمّله مسؤولية التخلي عن واجبه في حفظ الأسرة وحياة صاحب الأسرة المحبّ لها. وقد روى نجيب الريس في جريدته أن الغزي حين كان سجيناً (من قبل الإفرنسيين في جزيرة أرواد) شوهد يبكي بكاء شديداً، ولما سأله الريس عن سبب بكائه قال «لقد جاءني كتاب (رسالة) من البيت فأثّر في نفسي أن زوجتي وحدها وقد بَعُدْتُ عنها وعن أولادي، وقد قرأتُ الكتاب أكثر من عشرين مرّة...».

يا فَوْزا! تلكَ دمشقُ خلفَ سَوادها ترمي مكانكَ بالعُيونِ وتَرْمقُ[٢٠٨]

---

199) مَيْتَ منصوبة على النّداء. والشاعر يبعثُ من شعره (كنّى عنه بالقَوافي) زفرةَ أسًى، وعَبْرَةَ حُزن.

200) يتذكر إصغاء فوزي الغزي لأشعار شوقي حين كانا يلتقيان في دمشق.

201) المَخيلة جمعها مخايل، يقال: ظهرت في فلان مَخايل النّجابة أي: دلائلُها ومَظانُّها. وتجيشُ: تضطرب من حُزنٍ أو فرح.

202) الأجاج يجمع الملوحة إلى المرارة.

203) يقال سمٌّ ذعاف (بالذال) وزعاف: أي سريع القَتل. وموتٌ زعاف: سريع.

204) العدوّ الشديد العداوة.

205) من معنى: {لكل أجل كتاب}.

206) يقال: عَلِقَ الظبي بالحِبالة: نشب، وصِيْدَ. يقول: دبّر القاتل كيده، وأُعين بالموت المقدّر.

207) حية بشرية: امرأة (انظر مقدمة القصيدة). والمهاد: الفِراش. وانتاب: قصد. وطرق: أتى (ليلًا). كفرت هذه القاتلة بحسن العشرة.

208) يا فوزي (على التّرخيم). ودمشق في سوادٍ: حداداً على فقد الغزي.

ذكرَتْ ليالي بَدْرِها فتلفَّتتْ ... فعَساك تطلعُ أو لعلّك تُشرقُ[٢٠٩]
بَردى وراء ضفافه مُستَعْبِرٌ ... والحورُ محلولُ الضّفائر مُطرقُ[٢١٠]
والطّيرُ في جَنّات دُمَّرَ نُوَّحٌ ... يجدُ الهمومَ خَليُّهنّ ويأرَقُ[٢١١]
ويقول كُلّ مُحَدّث لسميره ... أبذات طوق بعد ذلك يُوْثَقُ؟
عشقت تهاويلَ الجمال ولم تجدْ ... في العَبقريّة ما يُحَبُّ ويُعْشَقُ!
فمشتْ كأنَّ بنانها يدُ مُدمنٍ ... وكأنّ ظلّ السُّمِّ فيها زئبقُ

– أشرك أحمد شوقي الطبيعة في الحزن على الفقيد من لبس السواد، ومن النظرة الباكية إلى دارك ومكتبك، وتتذكر إشراقتك كالبدر في سماء دمشق. وأثرت وفاته في كل شيء من دمشق وحولها: بَردى الباكي، والحورُ الذي أشبه الفتيات حللنَ شعرهنّ حداداً، وطيور دمّر التي طالما غرّدت غناءً فرحاً صار غناؤها نُواحاً!

ورجع إلى القاتلَة – كما قررت المحكمة آنذاك – وكنّى عنها بـ (ذات الطوق)[٢١٢]، وجعل جنايتها – على رغم رعاية المرثي لها ولأبنائها – سبباً في الشكّ في كل ذات طوق! هذه المذكورة عمي قلبُها عن العبقريّة التي كانت في كَنَفها ورعايتها، ثم جاء بصورة حركيّة لدس السّم في الدَّواء، وكأن يدها يد مُدْمِنٍ (متعوِّد) وذكر الزئبق لسرعة الحركة المطلوبة.

ولَوَ أنَّ مَقْدُورًا يُرَدُّ لرَدَّها ... بحياته الوَطنُ المَرُوعُ المُشْفِقُ[٢١٣]
أشقى قَضاء الأرض بعدكَ أُسرةٌ ... لولا القَضاءُ من السّماء لما شَقُوا
قَست القلوبُ عليهمُ وتحَجَّرتْ ... فانظرْ فؤادَك هل يَلينُ ويَرْفقُ
إنّ الذين نَزلْتَ في أكنافهم ... صَفَحُوا فما منْهُمُ مَغيظٌ مُحْنَقُ[٢١٤]
سَخروا من الدّنيا كما سَخرتْ بهمْ ... وانْبَتَّ من أسبابها المُتَعلَّقُ
يا مأتماً من عبد شمس، مثلهُ ... للشّمس يُصنَعُ في المَمات ويُنْسَقُ[٢١٥]
إن ضاق ظهرُ الأرض عنكَ فبَطْنُها ... عمّا وراءَكَ من رُفات أضْيقُ
لمّا جَمَعْتَ الشّامَ من أطرافه ... وافى يُعَزِّي الشّامَ فيكَ المَشْرِقُ[٢١٦]
يبكي لواءٌ من شباب أُميّةٍ ... يَحْمي حمى الحقِّ المبينِ ويَخْفِقُ[٢١٧]

---

209) يقول: كنت البدر في سماء دمشق، ودمشق – وهي تتذكر أيام إشراقك – تتمنّى لو كنت تعودُ من جديد!.
210) مُستعبر: يستدعي العَبَرات (الدّموع).
211) الخَلِيُّ: الذي لا تنتابه الهموم: فنواح هذه الطيور يؤثر في الخليّ فيحزن!
212) كنّوا قديماً عن المرأة بـ (ذات السوار)، واشتهرت عبارة: «لو ذاتُ سوارٍ لطمتني».
213) لو كان شيء يردّ القدر لافتدى الوطن الفقيد بحياته.
214) يخاطب الفقيد، الذي نزل في أكناف خَلْق تركوا الغيظ، وصَلَحُوا (وقد صاروا في خارج الدنيا).
215) هذا المأتم الذي أقيم لهذا الفقيد سليل الأُمويّين لا يشبهه إلا مأتم يقامُ للشمس لو قُدّر لها الفناء.
216) من أطرافه، أي أطراف بلد الشام ونواحيه. يقول: التفَّ في مأتمك أهل الشام جميعاً فحقّ أن يعزّيك المشرق كلّه.
217) شباب أمية: أهل دمشق (الشباب خاصة) لأنّهم مطمح الأمّة في الدفاع عن الوطن وحفظه، وطرد العدو منه.

لـمَستُ نواصيَها الحصونُ ترومهُ وتلمَّستْهُ فلم تجده الفَيْلَقُ[٢١٨]

– يقول: إن الفقيد كان ركنَ الزّعامة السورية، فإذا طلبت المشورة والرأي أجابها بالرَّأي الصّحيح المناسب، وإذا سألته أن يخطب (في الوطنيات خاصة) جاء بالخطاب البلاغي الفصيح.

فيحاءُ! أينَ على جنانك وَرْدَةٌ كانت بها الدُّنيا تَرِفُّ وتَعْبَقُ[٢١٩]

– وهذه الوردة ليست كسائر الورد، فعبيرها وعبقها يشمل الدنيا كلها.

عُلويّةٌ تجدُ المَسامعُ طيَّها وتُحسُّ رَيّاها العقولُ وتَنْشَقُ
وأرائكُ الزّهر الغُصونُ، وعَرْشُها يدُ أُمَّة، وجبينُها، والمَفْرِقُ
مَنْ مبلغٌ عنّي شُبولةَ جلَّق قولاً يَبَرُّ على الزَّمانِ ويَصْدُقُ
باللّه جَلَّ جلالُه، بمُحَمَّدٍ بيَسُوعَ، بالغَزّيِّ: لا تتفرّقوا

– يدعو شباب دمشق وأهل الشام عامة إلى التوحّد، ونبذ الخلاف، وأدخل في المقسم به اسم فوزي الغزي، في لفتة ذكية كريمة.

قد تُفْسِدُ المَرْعى على أخَواتها شاةٌ تَندُّ عن القَطيعِ وتمْرُقُ![٢٢٠]

تذييل:

وفي مَنْ رثى فوزي الغزي الشاعر الدمشقي محمد البزم[٢٢١] وعنوان قصيدته (مصرع الحق) ولم ينتبه المحققان إلى شخصية المرثيّ، وكشفتُها في دراستي عن البزم[٢٢٢] من أمور متعدّدة في ثنايا القصيدة منها ذكر اسم ابنه (خلدون).

ورثاه حليم دَمُّوس (شاعر سوري – لبناني) وذكر أسماء أولاده وهم بنتان: (دلال وعفاف) وصبي (خلدون)[٢٢٣].

قال محمد البزم:

يا أبا خلدون قد عالجتها جهمة الطلعة حلاً واغترابا

وقال حليم دمّوس:

يا واضع الدستور قُمْ واتْلُه إنّ بني قومي له منصتونْ
يا بطل (الكتلة) يا فخرها قم واشهد (الكتلة) حيرى العيونْ[٢٢٤]
وانظر إلى الأبناء في مهدهم يشجيهمُ الخطبُ فلا يهجعونْ!

218) نواصيها: أعاليها. والفيلق: الكتيبة العظيمة من الجند.
219) الفيحاء: دمشق. والجنان (جمع جنة) البساتين. والوردةُ إشارة إلى المرثيّ الغزي التي قُطفت!
220) ندَّ (ندّاً وندوداً) نَفر وشردَ.
221) محمد بن محمود البزم (1305؟هـ - 1981م / 1375هـ - 1955م) من أعضاء مجمع اللغة العربية – شاعر أديب حسن الترسل في إنشائه – طبع ديوانه بعد وفاته. (الأعلام للزركلي).
222) محمد البزم – تأليف: محمد رضوان الداية – تحت الطّبع في مجمع اللّغة العربية بدمشق – وقد استنتجت شخصية المقصود بقصيدة (مصرع الحق). وأطلعتُ على ذلك صاحِبَيْ شُعبة البحث العلمي في مجمع الفتح الإسلامي: د. نزار أباظة ود. إياد الطباع.
223) المثالث والمثاني – حليم دموس – الجزء الثاني منه نشر بعناية إدارة (العرفان) في صيدا – 1930 – ص: 229-231.
224) المقصود: «الكتلة الوطنية» في سورية.

خُلاصة وخاتمة

-١-

اختار الدكتور شوقي ضيف عنواناً لكتابه عن أحمد شوقي: «شوقي شاعر العصر الحديث» وهي عبارة موصولة باللقب الذي اجتمع له العرب المسلمون ومشاركون من أقطار أُخرى في القاهرة ١٩٢٧ لإعلان شوقي أميراً للشعراء.

وقد أخبَرَنا شيخُ العروبة: أحمد زكي باشا أنّ «لقب (أمير الشعراء) كان يخاطَبُ شوقي به قبل بيعته بزمان طويل»[٢٢٥].

ولم يكن شوقي شاعر مصر وحدها، بل كان من أيام نبوغه الشعري الأولى موصولاً – على درجات – بأحوال الأمّة على امتداد أرضها، ذاكراً لأيّامها الخالية على امتداد تاريخها.

وعاصر شوقي في حياته بَين القرنين التاسع عشر والعشرين (١٨٦٨- ١٩٣٢) أحداثاً تاريخية (بعضها أحداث فاصلة) أثّرت في حياة العرب والمُسلمين. عاصر أواخر ثَبات الدّولة العثمانية، وشهد انفصال بعض أجزائها في أوربة، وعايَن تكالب الدول الأوروبية على (وراثَة) الرجل المريض، وعَرف ما اتفق عليه الشريف حسين مع الإنجليز من تبادل المنافع[٢٢٦]:

- يُعينُ العرب الإنجليز (والحلفاء) ويطرحون ولاء الدولة العثمانية، ويسعون في إخراجها من البلاد.
- ويسمحُ الإنجليز (والحلفاء معهم) للعرب بإقامة دولتهم الموحّدة.

وعايَن مع العرب (وأمم الأرض شاهدة) نكوص الإنجليز عن وعدهم، وأظهروا المخبَّأ من اتفاق (سايكس بيكو).

وانهارت الدولة العثمانية (وألمانية) في الحرب الأولى، وآل الأمر في بلاد الشام والعراق إلى مأساة، وظهرت خمس دول: سورية، ولبنان، وفلسطين (التي كانوا يهيِّئونها لتقع في أيدي اليهود) والأردن، والعراق.

وصارت سورية من نصيب فرنسا. ودخلنا في دوّامة تقطيع أوصال المُقَسَّم (سورية) إلى تقسيمات داخليّة!..

وبدأت حركة الاستقلال حرباً ومفاوضة معاً.

-٢-

تعرّض شوقي لنكبة أثّرت في حياته، وأثرت في شعره، تلك هي ترحيله (نفيه) إلى خارج مصر. قضى في الأندلس (إسبانية) نحو خمس سنوات. وفي الأندلس، رجع، وهو يزور القسم الجنوبي من البلاد، إلى عصور الزّهو العربي، ورأسُها العصرُ الأمويُّ المروانيُّ. والتفت شوقي التفاتةً جديدةً قوية إلى الأمويين في الأندلس، في نظرة موصولة بالأمويين في دمشق.

وأُتيح لشوقي من شباب سورية (فتيانٌ)[٢٢٧] عروبيّون طلبوا من شوقي أن يضيفَ إلى عنايته العامة بالعرب عنايةً خاصّةً بدمشق والشّام... وانفتح بابٌ جديدٌ في ديوان شوقي مثلما انفتح في حياته أيضاً.

---

225) ذكرى الشاعرين: شاعر النيل وأمير الشعراء: دراسات ومراثٍ ومقارنات مدبجة بيراع أئمة البيان وأعلام الكلام في البلاد العربية – جمعها ورتّبها أحمد عبيد - ج2 – ص338. من بحث لشيخ العروبة عنوانه «ذكرياتي عن شوقي».

226) انظر: تاريخ سورية (-1908 1918) د. علي سلطان – (الفصلان الثامن والتاسع) وفيهما كلام مفصّل.
- والفصلين العاشر والحادي عشر من: مرآة الشام لعبد العزيز العظمة.

227) كما سمّاهم شوقي في شعره (وقد مرّ ذلك).

-٣-

لبّى شوقي دعوة المجمع العلمي العربي في دمشق ١٩٢٥ ، واختلط «بالشّوام» أهل دمشق والشام، وجال في دمشق، وفي الغوطة، وربَط الحاضر بالتاريخ المُشرق الماضي، وتَوَّجَ دمشقَ وأهل دمشق بتاج من الشّعر العالي الطبقة الذي لا يجاريه شعرٌ آخر، وإن كان حسناً جداً.

أنشدَ شوقي في مَحبّة دمشق وأهلها، وفي ذكريات تاريخها، وفي حلاوة حاضرها (قم ناج جلّق). وحين اعتدى الفرنسيون على دمشق عدوان الهمجِ والفرنجة: مجرمي الحرب أنشدَ قصيدةً أخرى من روائعه (سلامٌ من صبا بردى)، وأنشد ثالثة (حيَاة لا نريد لها زيالا) مَجّد فيها يوسف العظمة. وتعاطفَ مع أحوال سورية، ولـمّا اغتيل فوزي الغَزّي (أبو الدسَتور) أنشد قصيدةً لا تقلّ جودةً وانتماءً وحميميّةً عن سابقاتها.

وظهر لأهل دمشق (والشام) وللأدباء والنّقاد والمؤرّخين أن حصّةَ هذه المدينة، وهذه البلاد من شوقي تفوقَ ما جاد به على الأقطار الأخرى، وأنَّ عاطفَته فيها كانت كعاطفته في بلده وأهله مصر.

-٤-

ومن المؤثّرات التي اجتمعت لشوقي، وكانت وراء تَرْك قصيدته التي كان أعدّها لتُنْشَدَ في المجمع بدمشق، وإنشاد قصيدة جديدة مُرتجلة دخولُه ذلك البناء العظيم: المسجد الجامع الأموي، ووقوعُه تحت تأثير روعتهِ العمرانيّة، وروعَته الإيمانية، ورَجعت به الذاكرة إلى أعوام سابقة وقَف فيها في أحد أيّامها عند مسجد أمويّ جامعٍ عظيم آخر، هو المسجد الجامع الأموي في قُرطبة. ونقرأ في هذا المعرض لحسين شَوقي واصفاً زيارة أبيه لدمشق[٢٢٨]: «ثم زار في دمشق مَسْجدها الأمويّ التاريخي، وقد بَكى هناك كما بكى من قبل في جامعِ قرطبة بني أمية الأمجاد الذين شيّدوا المسجدين، فقال:

مررتُ بالمسجد المحزون أسأله ... هل في المصلى أو المحراب مروانُ؟

الأبيات...».

-٥-

ولشوقي مع دمشق أُفقٌ آخر، ذلك بأنّه أكْبَرَ في أشعاره وتصريحاته مكانة صلاح الدين الأيوبي في شخصه، وذكائه، وتضحيته وجهاده، ونَصْره العربَ والمُسلمين؛ ذكرَ شوقي صلاح الدين أكثر من مرّة في أشعاره، ونظم قصيدةً خاطب بهَا إمبراطور ألمانية غليوم الثاني حين وقف عند ضريحه، وذكرَه بالإشارة في قصيدته: «قم ناج جلّق..».

- وهناك خبران جديران بالتّنبيه عليهما:

١- كتب أحمد عبد الوهاب أبو العز في كتابه عن صُحبة شوقي[٢٢٩]:

« ... منذ بضع سنين زار [شوقي] قبر صلاح الدين بدمشق، وعاد إلى دُمَّر فأخذ ينظم، وكان معه الأستاذ محمد عبد الوهاب[٢٣٠]، والأستاذ نجيب الريّس[٢٣١]. فلم يمضِ أكثر من ساعة حتى انتهت القصيدة التي مطلعها:

قم ناج جلّق وانشُدْ رَسْمَ مَن بانوا ... مشتْ على الرّسْم أحداثٌ وأزمانُ

228) القذائف كأنها النيران.

229) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء: 21.

230) هو الموسيقي، والمغني المعروف (وقد غنى كثيراً من قصائد شوقي ومنظوماته).

231) هو الصحفي المشهور (1900-1953).

فتكلّموا معه عن سُرعته في نظم القصيدة مع مكانتها من الجودة فقال: هي رُوح صلاح الدين»!
٢- قال أمين سرّ شوقي في كتابه، وهو يصف موقفاً لشوقي حين كان في دمشق سنة ١٩٢٥ :
« ... وفي الصّباح المبكّر طلب سيّارةً وقال لسائقها : إلى صلاح الدين! ثم التفتَ إليَّ قائلاً: ألم تقرأ أو تسمع شيئاً عن صلاح الدّين؟ فقلت: نعم! قال: إذن تفخر بهذه الزيارة، أليس كذلك؟ قلت: بلى! قال: هذا هو الخُلود في الحياة، فقد مرّت قرون على صلاح الدين ولا زالت الأجيالُ تتوارثُ ذكره!».
قال: «وعندما وصلنا إلى هناك ووقف أمام ضريحه، همس لي قائلاً: هذا همَّةٌ! هذا أمَّةٌ، هذا مَجْدٌ! هذا فخرٌ!
انظرْ! طوته الأرض، وهي أبداً تطوي، ولكنّ ذكره باقٍ حتّى تطوي السَّماءُ الأرض!».
قال الراوي: «ثم وقف برهةً يتنقّل ببصره حول الضَّريح، وينظر إلى ما سُطّر بالحائط، ثم أخَذَ يُتَمْتِمُ بكلمات لم أسمعها، واغرورقَتْ عيناهُ، وخرجنا، ولكنه لم يتكلّم طول الطريق حتى الفُندق. وبعد ساعة قمنا إلى بيروت....»[٢٣٢].
وفي دمشقيات شوقي وشامياته هاجسٌ يتكرر في كل قصيدة، وهو دعوة السوريين إلى الاتفاق، ووحدة الصف مع وحدة الهدف، ووضع مصلحة الوطن فوق كل مصلحة. وهذه النصائح تصدر عن قلب شوقي المحبّ، المنتمي، العروبي المخلص.
وكان السياسيّون في سورية يقعون أحياناً تحت تأثير سياسة فرنسا «فرِّق تسد»، وقسمتهم بين متطرفين ومُعتدلين، وقطع الصِّلات فيما بينهم بتقسيم سورية أقساماً متباعدة[٢٣٣].
ونصح شوقي أهله في مصر أيضاً، في مواقف كثيرة، ومن شعره في هذا الجانب؛ في قصيدة (شهيد الحق) التي أنشدها في ١٠ شباط (فبراير) ١٩٢٥ في الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل[٢٣٤]:

إلامَ الخُلْفُ بينكم إلاما ... وهذي الضجّة الكبرى علاما؟
وفيمَ يكيدُ بعضكمُ لبعضٍ ... وتُبدون العداوةَ والخصاما؟

-٦-
كانت قصائد شوقي في دمشق:
- تأريخاً يدخل في صفحات التاريخ، حين يكون الشعر مصدراً ثانوياً (أي ثانياً) يفيد المؤرخ ويكشف له عن الحقائق.
- وكان وصفاً لأحوالها الثقافية والاجتماعيّة، وقد تنقّل في العاصمة والغُوطة، وعايشَ الناس، واستمعَ إليهم يُنشدون من شعره، وعَجِب، وأعْجَبَهُ أنّ مدينة الشُّعراء دمشق تفضِّلُ أوّلاً أن تنشد من شعره!
- قال الدكتور محمد أسعد طلس[٢٣٥]: «وأمّا شوقي فقد فُتنَ الشاميون بشعره، وأجَلّوه إجلالاً ما بعده إجلال، ولا عَجب، فإنّ فوق مكانته الشعرية التي أهَّلتهَ إمارةَ الشعر كثيرُ الذِّكر لبلاد الشام، وشعره سجلٌ لكبارِ حوادثها».

232) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء: 55.
233) في (لطفي الحفّار: 150) أن السُّلطات الفرنسية اعتقلت الثلاثة المتطرفين: الحفار وأرسلان (أمين) والخوري (فارس) ومعهم: سعد الله الجابري وفوزي الغزي وبدر الدين الصفدي وأديب الصفدي ونفَتْهُم وسَجَنتهم في حزيران 1926.
وسمّى فيليب خوري الخلاف بين رسلان والشهبندر (شقاقاً) وقال إن كل واحدٍ منهما كان يشكل تياراً (سوريا والانتداب الفرنسي: 278-279).
وسجّل أمين سعيد في (الثورة السورية الكبرى ص535 في سرد أنشطة الحركة السياسية ظهور تيار مؤيد للملكيّة وآخر مؤيّد للجمهورية. «أحداث حزيران 1928»)... الخ.
234) ديوان شوقي 2: 538.
235) مصر والشام في الغابر والحاضر: د. محمد أسعد طلس — ص 64.

– وكان شعر شوقي في دمشق والغوطة وصفاً رائعاً لأحوالها الطبيعية من جمال المكان، ونضرته، وخُضرته، وجريانِ مياهه... الخ.

–٧–

إذن كان لدمشق والشام أثر في حياة شوقي ووجدانه، وشعره؛ ونذكر خبرين لهما أهمية في هذا الجانب، فقد نقل كاتبه وأمين سرّه قوله: «أهل الشام أقارب كل غريب»[٢٣٦].

وفي مقام آخر: وبعد زيارة معروف الأرناؤوط لشوقي في القاهرة قال شوقي لكاتبه وأمين سره، بعد أن خرج الزائر: «صدري ينشرحُ وقلبي يفرحُ بلقاء إخواننا السُّوريّين واللبنانيّين، وأراهُ كلقائي أهلي بعد سفر»![٢٣٧] قلت: ما ألطف هذا الكلام وأعذَبه.

وكان الأمير شكيب أرسلان قد وقف عند قصيدة شوقي[٢٣٨]:

سلامٌ من صَبا بردى أرقُّ ودمعٌ لا يكفكفُ يا دمشق

وفي جملة ما ورد في ذكرياته مع شوقي أنه «قيل إن هذه القصيدة كانت سبباً في غضب الفرنسيّين على شوقي، وحرمانه من زيارة المغرب» قال: «سمعت أنه استأذنَ الحكومة الفرنسية في هذه الزيارة (طلب تأشيرة دخول) فأبَتْ عليه الإذن مُعْتَلَّةً بهذه القصيدة»[٢٣٩].

–٨–

تعدّ دمشقيات شوقي وشامياته في أرفع درجات الشعر العربي وأعلاه، وقصائده هذه من غرر قصائده، صياغةً وأسلوباً، وأعذبها لغةً وإيقاعاً ورَوِيّاً، وأشفّها دلالة على خصائص الشوقيّات من التعبير والتصوير، وإسباغ روح الشعر على مقاصدِه...

وفي شعره الدمشقي الشامي نزعة عاطفيّةٌ جليلةٌ: أتمّ فيها ما كان معروفاً عنه من التعاطف مع قضايا العرب في أقطارهم، ولَكنّ التفاته إلى دمشق والشام كان مميّزاً؛ لقد أوغل شوقي فيها في نزعته العروبية، وحلّى دمشق وأهلها بهذه النفائس التي لا نظير لها. وأختمُ بما قاله الدكتور شوقي ضيف وهو يرصدُ ملامح شعره في دمشق والشام:

« ... وشعر شوقي في شاميّاته عزّز نزعة العروبة عنده» ثم قال بعد سَرْد شيء من شعره في سورية ولبنان «وكل ذلك ثمرةُ نزعة العروبة التي انطوتْ عليها نفسُ شوقي، وهو يشارك العربَ في ثوراتهم...»[٢٤٠].

وقال د. ضيف في مجال آخر من كتابه: «وربما لم يظفر قُطْرٌ من شوقي بما ظفرت به سورية؛ فقد راح يرتِّل عَصْرها الذّهبيّ أيام الأمويّين، ويشيد بأبنائها في قصيدته التي أنشدها في المجمع العلمي العربي يوم ١٠ أغسطس (آب) ١٩٢٥ ....»[٢٤١].

لقد استحقَّ شوقي عن جَدارةٍ لقب: مُواطن دمشقي، وإن كانت بلاد العرب جَميعاً تفخر بأن يكون شوقي مواطناً فيها.

236) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء: 53.
237) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء: 64.
238) ديوان شوقي 1: 348.
239) شوقي أو صداقة أربعين سنة: 258.
240) شوقي شاعر العصر الحديث: 148.
241) شوقي شاعر العصر الحديث: 192.

مصادر البحث ومراجعه

- الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال – محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط١ .
- أبي شوقي – حسين شوقي – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٤٧ .
- اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء – أحمد عبد الوهاب أبو العزّ – القاهرة – الطبعة الأولى.
- أحداث الثورة العربية – ميسلون نهاية عهد – صبحي العمر – رياض الريس للكتب والنّشر – لندن.
- الأعلام – خير الدين الزركلي – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الثانية عشرة – ١٩٩٧ .
- أندلسيات شوقي – د . صالح الأشتر – جامعة دمشق – ١٩٥٩ – الطبعة الأولى.
- أهداف الثورة العربية – ميسلون نهاية عهد – صبحي العمري – دار رياض الريّس للكتب والنشر – لندن، قبرص – ١٩٩١ .
- البحر المحيط (تفسير أبي حيان الأندلسي) تحقيق محمد رضوان عرقسوسي ومحمد معدّ كريم الدين ومحمد أنس الخنّ – الرّسالة العالميّة – دمشق – ١٤٣٦هـ - ط١ .
- التاريخ الإسلامي – العصر العثماني – محمود شاكر – المكتب الإسلامي – بيروت – ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- تاريخ الدولة العثمانية – يلماز أوزتونا – ترجمة عدنان محمود سلمان – مراجعة وتنقيح د . محمود الأنصاري – منشورات شليل للتمويل – تركيا – إستانبول – ١٩٩٠ .
- تاريخ سورية (١٩٠٨- ١٩١٨) (نهاية الحكم التركي) – د . علي سلطان – دار طلاس – الطبعة الأولى – ١٩٨٧ .
- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر – د . نزار أباظة ود . مطيع الحافظ – دار الفكر – دمشق – ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- تاريخ نشر التراث العربي – د . محمود الطناحي – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط١ .

- ثورة سورية الكبرى: أسرارها وحوادثها ونتائجها – تنبّؤات خطيرة عن كارثة فلسطين الحاضرة – مذكرات الزعيم الشهيد عبد الرحمن الشهبندر – دار الجزيرة للصحافة والنشر – عمّان – المملكة الأردنية الهاشميّة – ط١ .
- الثورة العربية الكبرى – تاريخ مفصل للقضية العربية – أمين سعيد – مكتبة مدبولي – القاهرة – الطبعة الأولى.
- خطط الشام – محمد كرد علي – مكتبة النوري – دمشق.
- دمشق – (صور من جمالها، وصور من نضالها) – علي الطنطاوي – دار المنارة – جدّة – الطبعة السّابعة – ٢٠١٤م.
- دمشق في مطلع القرن العشرين – أحمد علي العلاّف – حققه وقدّم له: علي جميل نعيسه – دار دمشق – لا تاريخ.
- دولة الإسلام في الأندلس: الخلافة الأموية والدولة العامرية – محمد عبد الله عنان – العصر الأول – القسم الثاني – الطبعة الرابعة – مكتبة الخانجي – القاهرة – ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- ديوان إبراهيم (أعمال شاعر فلسطين إبراهيم طوقان) – دار القدس – بيروت – ط١ .
- ديوان أبي الطيب المتنبي – عبد الوهاب عزام – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م.
- ديوان أبي الطيب المتنبي – بشرح أبي البقاء العكبري المسمّى بالتبيان في شرح الديوان – ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقّا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي (طبعة دار المعرفة بلبنان المأخوذة من الطبعة المصرية). [وصحّح بعض المعاصرين نسبة الكتاب، وردّه بأدلة ساقها إلى ابن عدلان].
انظر: مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) – المجلد ٢ – الصفحة ٣٧و ١١٠ .
- ديوان البزم – ضبطه وشرحه: سليم الزركلي وعدنان مردم بك – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – دمشق – ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.
- ديوان تذكار الصبا – بقلم نجيب بن سليمان الحدّاد اللبناني – طبع مدينة الإسكندرية – مطبعة جرجي غرزوزي ملتزم طبعه – ١٩٠٥ .
- ديوان حافظ إبراهيم – وزارة المعارف – القاهرة – الطبعة الأولى.

- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري – عبد الرحمن البرقوقي – دار الأندلس – بيروت – ١٤١٦هـ – ١٩٩٦ .
- ديوان الخليل (خليل مطران) – دار مارون عبود – بيروت – ط١ .
- ديوان شوقي – تحقيق د . أحمد الحوفي – القاهرة – الطبعة الأولى.
- ديوان عزيز أباظة – دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني – بيروت – ط١ .
- ذكرى الشاعرين: شاعر النيل وأمير الشعراء – دراسات ومراث ومقارنات مدبجة بيراع أئمة البيان وأعلام الكلام في البلاد العربية – جمعها ورتّبها أحمد عبيد – المكتبة العربية – دمشق – مطبعة الترقّي – ١٣٥١هـ.
- رحلة الإمبراطور غليوم = الشام قبل مئة عام.
- رواية اسمها سورية (مئة شخصية أسهمت في تشكيل وعي السوريين في القرن العشرين) نبيل صالح: تحرير وإشراف عام – الطبعة الثانية – ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار – محمد بن عبد المنعم الحميري – تحقيق د . إحسان عباس – مؤسسة ناصر للثقافة – ١٩٨٠م.
- سوريا والانتداب الفرنسي – سياسة القومية العربية – (فيليب خوري) – ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية – الطبعة الأولى – بيروت – ١٩٩٧م.
- الشام قبل مئة عام – عناية حسن السماحي – دار القادري – دمشق – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
- شرح ديوان حسّان = ديوان حسان.
- شوقي أو صحبة أربعين سنة – بقلم أمير البيان شكيب أرسلان – أضواء السّلف.
- شوقي شاعر العصر الحديث – د . شوقي ضيف – دار المعارف بمصر – ط١ – ١٩٥٣م.
- شوقي: شعره الإسلامي – د . ماهر حسن فهمي – دار المعارف بالقاهرة – ط١ .
- غبار السّنين – د . عمر فرّوخ – دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – بيروت.
- غوطة دمشق – د . صفوح خير – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دمشق – ١٩٦٦ .

- الفجر الأول – خليل شيبوب – تحقيق محمد رضوان الداية – وزارة الثقافة – دمشق – ٢٠١٩ .
- لطفي الحفار – ١٨٨٥-١٩٦٨ مذكراته، حياته، وعصره – سلمى الحفار الكزبري – منشورات رياض الريّس للكتب والنشر – ط١ – ١٩٩٧م.
- المثالث والمثاني – حليم دمّوس – الجزء الثاني – نشر بعناية دار العرفان في صيدا – مطبعة الفرقان – صيدا (لبنان) – ١٩٣٠ .
- مجلة المجمع العلمي العربي – دمشق (أعداد متفرّقة).
- مذكرات غليوم الثاني – اشترك في نقلها إلى العربية: أسعد داغر ومحبّ الدين الخطيب – المطبعة السلفية بالقاهرة – ١٩٣١ .
- معجم البلدان – ياقوت الحموي – دار صادر – بيروت – ط١ .
- المعجم الوسيط – مجموعة من العلماء – مجمع اللغة العربية – القاهرة – الطبعة الأولى.
- مجمع الأمثال – أبو الفضل الميداني – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – (طبعة مصورة عن طبعة القاهرة).
- المثالث والمثاني – حليم دمّوس – ج٢ – نُشر بعناية إدارة (العرفان) – صيدا – ١٩٣٠ .
- مرآة الشام: تاريخ دمشق وأهلها – عبد العزيز العظمة – تحقيق نجدة خمّاش – دار الفكر – دمشق – ١٤٠٣هـ - ٢٠٠٢م.
- مصر والشام في الغابر والحاضر – محمّد أسعد طلس – مؤسسة هنداوي – المملكة المتحدة – ط١ – ١٩٤٥ .
- المعجم الجغرافي للقطر العربي السّوري – مركز الدراسات العسكرية – دمشق – الطبعة الأولى – ١٩٩٢ .
- موسوعة المورد – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٨٣ .
- نهج البردة لأمير الشعراء أحمد شوقي، وعليه وضح النهج لشيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ سليم البشري – أعادت طباعته مكتبة الآداب بالقاهرة – ١٩٨٧ .
- الوطن (جريدة دمشقية) ٢٠٠٩/٧/٢٣ .